جمهورية العراق
وزارة التربية
المديرية العامة للمناهج

الأدب والنصوص

للصف الرابع العلمي

تأليف

د . سمير كاظم الخليل   تركي عبد الغفور الراوي

علوان عبد الحسن السلمان   موسى حسين القريشي

الطبعة الرابعة   ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

المشرف العلمي على الطبع
د.عبد العبـــــــــاس عبد الجاســــــم

المشرف الفنــي على الطبع
شيمــــــاء عبد الســــــادة كاطع

www.iraqicurricula.org
الموقع الرسمي للمديرية العامة للمناهج
على شبكة الانترنت

المركز التقني لأعمال ما قبل الطباعة

مُقدّمة

ليس الغرض من تأليف الكتاب أن يلتزم الطالب بمادته التزاماً صارماً يعطل قدراته الفكرية والتأملية .. وإنما الأساس في الدراسة الحقيقية هي تلك التي تقوم على المناقشة وإبداء الرأي للوصول إلى الحقيقة العلمية التي نهدف إليها بتحريك القوى الفكرية للطالب .. ومهمة المدرس عرض الموضوع ومناقشته مع طلابه لتحقيق رأي من مجموعة آراء يكونها الطالب والمدرس لبناء شخصية لها موقف من الحياة وتحديد مستقبلها وتناسي أساليب التلقين وحشو الأدمغة بمعلومات بائسة سرعان ما ينساها الطالب باجتياز المرحلة الدراسية .

لذا توصي اللجنة التي وقفت على إعداد وتأليف هذا الكتاب والتزمت التزاماً دقيقاً بمفردات المنهج الجديد المقرر أن يكون تدريسه على نحو حوار بين المدرس والطالب .. وتؤكد ما للحفظ من تأثير في تقويم اللسان وترسيخ الملكة اللغوية ، بشرط ألا يسود وحده في الصف ، فيتحول كتابنا هذا إلى كتاب محفوظات والدراسة إلى تلقين لا فائدة منه مع ترحيب اللجنة بأي توجيه أو تصحيح أو نقد أو ملاحظة يتفضل بها من يدرسونه أو يطلعون عليه .. ولهم أن يتمموه بما يضيفون من معلومات قد تقرب موضوعاته من حياتنا الجديدة ..

وإننا إذ نقدم هذا الكتاب بما فيه من جهد متواضع لطلابنا الاعزاء لا ندعي الكمال فـ (الكمال لله وحده) ، بل نحن على يقين من أن إخواننا المدرسين سوف يقوّمون ما في الكتاب ويسدون ما يجدونه من نقص بما يبعثون به إلينا مما يتوفر لديهم من ملاحظات في أثناء تدريسهم الكتاب ومادته ، وإننا نعدهم وعداً صادقاًبتلقي تلك الملاحظات بصدر رحب والعمل على كل ما نراه منها صحيحاً يتفق مع المنهج المرسوم والمنطق العقلي .. شاكرين لهم جهودهم وافضالهم ..

والله نسأل أن يوفقنا في أداء واجبنا نحو أبناء وطننا .. إنه نعم المولى ونعم النصير .

المؤلفون

بسم الله الرحمن الرحيم

معناه وأنواعه

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) : «أدَّبني ربي فأحسن تأديبي» فالأدب بهذا المعنى هو الاتصاف بالخلق الكريم والفضائل وتهذيب النفس ، ثم تطورت كلمة (الأدب) فاستعملت بمعنى التعليم وأصبح لفظ المؤدب يرادف المعلم الذي يتخذ التعليم حرفة وأصبح لفظ الأدب يدل على ما يلقيه المعلم إلى تلميذه من الشعر والقصص والأخبار، وكل ما من شأنه أن يثقف نفس المتعلم ويهذبها ويمنحها حظاً من المعرفة .. فالأدب بهذا المعنى إذن جملة الكلام الجيد من المنظوم والمنثور وما يتصل به من تفسير ، وغلب استعمال كلمة الأدب والتأديب بهذا المعنى في أثناء القرن الأول للهجرة ، في كل ما من شأنه التثقيف والتهذيب من أنواع العلوم ما عدا العلوم الدينية ..

وهكذا ترى لفظة الأدب تؤدي معنيين :-

أحدهما : المعنى الخُلُقي التهذيبي . والثاني : هذا الكلام شعراً أم نثراً فالقصيدة الرائعة والخطبة المؤثرة والقصة الحسنة والمقالة البارعة كلها تُحدثُ في النفس إثارة جميلة ..

وهكذا ترى أن أخصَّ ما يتميز به الأدب عواطف إنسانية تؤدى بأسلوب رائع فالأدب هو لغة خاصة مشحونة بتجربة الأديب وعواطفه بتجاوز حدود اللغة والتحرر من قيودها إلى آفاق مجازية وباختصار فالأدب : فنٌّ أداته اللغة .

أنواع الأدب

الأدب نوعان : أدب إنشائي (إبداعي) وأدب وصفي ..

والأدب الإِنشائي يبدعه الأديب ويجعل منه أثراً فنياً جديداً لم يكن من قبلُ أن يبدع أو ينشأ . ولهذا سمي إنشائياً ، وأخص ما يمتاز به هذا الأدب أنه يصور تصويراً فنياً ما تقع عليه عين الأديب او ما يختزنه من مشاعر وتجارب وما أثر فيها من أحداث ، وهذا النوع من الأدب يقرؤه الناس فيتأثرون به .

أما الأدب الوصفي فهو الأدب الذي يتناول الأدب الإِبداعي (الإِنشائي) بالدراسة والاهتمام كتأريخ الأدب ، والنقد الأدبي ، والبلاغة ... الخ .

والأدب الإِنشائي أو الإِبداعي يقسم إلى شعر ونثر ، وللشعر نوعان :- عمودي وحر والعمودي هو الذي يعتمد نظام الشطرين ، الوزن والقافية . أما الشعر الحر فيتحرر من الوزن التراثي والقافية مع التزامه الشطر الواحد الذي قد يطول وقد يقصر .

والنثر أنواع هي :- القصة والرواية والمقالة والخطبة والمسرحية وغيرها .

العصور الأدبية

ينقسم الأدب العربي على عصور أدبية تبدأ بعصر ما قبل الإسلام وتنتهي بالعصر الحديث ، ولكل عصر من هذه العصور مميزات وسمات ، ولكن الأدب لا يتغير تماماً بين عصر وآخر ، إنه يستمر في تطوره ويحاول العصر التالي أن يستفيد من موروثه ويعمل على ترسيخ جيده ونمائه .

ويعدُّ عصر ما قبل الإسلام الأساس والمنطلق الأول للأدب العربي عبر العصور ، يليه صدر الإسلام ، والعصر الأموي فالعباسي ثم العصور المتأخرة حتى العصر الحديث .

١- العصر الجاهلي (عصر ما قبل الإسلام) : هو العصر الذي يمثل مرحلة ما قبل التأريخ الإسلامي إلى ظهور الإسلام ، وكان الشعر هو الأكثر شيوعاً فيه مع وجود بعض الخطب والحكم والأمثال والوصايا ، وما يسمى بسجع الكهان ، ومن أبرز شعراء هذا العصر : المهلهل التغلبي ، وامرؤ القيس ، والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد العبسي ، وعمرو بن كلثوم التغلبي وطرفة بن العبد وأعشى قيس ولبيد بن ربيعة العامري والحارث بن حِلِّزَة اليشكري وأمية بن أبي الصلت والشنفرى وعروة بن الورد وغيرهم.

أما خصائص الشعر الجاهلي فتتمثل في تعدد أغراض القصيدة والابتداء بذكر الأطلال والوقوف عليها ، واللغة المنسجمة مع العصر وجزالة الألفاظ والتعبير عن الواقع الاجتماعي والطبيعة البدوية على الأغلب .

٢- العصر الإسلامي (عصر صدر الإسلام) : هو العصر الذي يمثل المرحلة من ظهور الإسلام إلى قيام الدولة الأموية في الشام .

تميز شعر هذا العصر بالدفاع عن الإسلام ومدح الرسول وهجاء المشركين والحماسة وتمجيد الدين الجديد ، ومن أبرز شعرائه : حسان بن ثابت ، وكعب بن زهير وعمرو بن معدي كرب والخنساء والحطيئة وغيرهم.

٣- العصر الأموي : وهو العصر الذي يمثل مرحلة حكم الأمويين من سنة (٤١ هـ) إلى حكم العباسيين سنة (١٣٢ هـ) ومن شعراء هذا العصر عمر بن أبي ربيعة ، والأخطل والفرزدق ، وجرير ، والكميت الأسدي ، وكان شعر هذا العصر انعكاساً للحالة السياسية والاجتماعية فقد ظهرت النقائض وشعر الغزل والشعر السياسي ، ومن خصائص هذا الشعر أنه امتداد للشعر الجاهلي في بنائه مع خيال شعري ، فيه شيء من الحرية وتأثر بالمضامين الدينية وآثار الحضارة المدنية وشيوع الغزل العذري والصريح فيه مع التفات إلى شعر الزهد والطبيعة .

٤- العصر العباسي : وهو العصر الذي يمثل المرحلة من قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ إلى سقوط الخلافة في بغداد على أيدي المغول سنة ٦٥٦هـ . ويقسم هذا العصر إلى عصور لطوله ويشمل :-

١- العصر العباسي الأول (من ١٣٢هـ - ٢٣٢هـ) حتى حكم المتوكل .

٢- العصر العباسي الثاني (من ٢٣٢هـ - ٣٣٤هـ) حتى قيام الدولة البويهية في بغداد

٣- العصر العباسي الثالث (من ٣٣٤هـ - ٤٤٧هـ) حتى قيام حكم السلاجقة .

٤- العصر العباسي الرابع (من ٤٤٧ هـ - ٦٥٦ هـ) حتى احتلال بغداد على يد المغول .

ومن أبرز شعراء هذا العصر بكل تقسيماته : بشار بن برد ، أبو العتاهية ، أبو نواس ، أبو تمام ، مسلم بن الوليد ، ابن الرومي ، ابن المعتز ، البحتري ، المتنبي ، الشريف الرضي ، أبو العلاء المعري ... وغيرهم .

أمّا خصائص الشعر في هذا العصر فتتمثل في الانتقال من البداوة إلى الحاضرة وفي الخروج من التقليد إلى التجديد ، وهجر اللغة الغريبة ، والميل إلى الأوزان الخفيفة والإكثار من الفنون البلاغية كالتشبيه والاستعارة وعلم البديع وترك الوقوف على الأطلال وظهور الوحدة الموضوعية في كثير من القصائد .

٥- العصور المتأخرة : وتمثل المرحلة من سقوط بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦هـ إلى الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م . ومن أبرز شعراء هذا العصر : التلعفري والشاب الظريف ، والبوصيري ، وابن المصري ، وابن حجة الحموي ، وصفي الدين الحلي ، وابن معتوق الموسوي وغيرهم .

أما خصائص الشعر في هذا العصر فتتمثل في رداءة التقليد والمحسنات البديعية والتكلف والألاعيب اللفظية ودخول الفنون العامية والموضوعات الفردية الضيقة . وقد ناء الشعر بعد سقوط بغداد بتكرار المضامين والبراعة اللفظية والتخلف بتأثير عوامل الانحسار الحضاري والاحتلال الأجنبي والجهل والفقر والمرض ...

٦- العصر الحديث : يمتد العصر الحديث من حملة نابليون على مصر حتى الآن ويشمل هذا العصر مراحل توشك أن تكون متداخلة ولكن فيها بعض التمايز الفني بوصفه المقدمة الطبيعية للتطور الشعري الذي استحال إلى إبداع في إطار مدارس شعرية متعددة منها مدرسة الإحياء ومدرسة المحافظين وجماعة الديوان ومدرسة أبولو ومدرسة الشعر الحر . ولقد مثَّلَ مدرسة الإحياء الشاعر محمود سامي البارودي في مصر ومحمد سعيد الحبوبي في العراق ومَثَّلَ مدرسة المحافظين

أحمد شوقي في مصر ومحمد مهدي الجواهري في العراق وجماعة الديوان مثلها عباس محمود العقاد ومدرسة أبولو مثلها أحمد زكي أبو شادي ومدرسة الشعر الحر مثلها الشاعر بدر شاكر السياب .

ولا ننسى أن هناك اتجاهين أحدهما قديم والآخر حديث تكوَّنا خارج البيئة العربية ولكنه أدب عربي خالص الأول : الشعر الاندلسي ، والآخر : شعر المهجر . وكلاهما له ميزات فنية خاصة به .

إلى أبي وأمي .. ساهما في حماية البيئة لتضمنا لي مستقبلاً أفضل .

١- الشعر

نشأته ومصـــــــادره

يمثل الشعر في عصر ما قبل الإسلام ، والمسمى في مصادر الأدب ومراجعهِ (العصر الجاهلي) نقلة مرحلية متطورة للشعر العربي بعد أن اجتاز المراحل الأولى ، التي لاتزال أصولها غير معروفة ولكن المرجح ان الشعر في مرحلة النشوء كان يمثل العصر البطولي وتعبر أحداثه عن واقع الإنسان ، وتتخذ من القبيلة العربية وبلاد العرب الميدان الرحب الذي تلتقي فوق كثبانه مطامح الأبناء المشروعة في التمتع بالحرية والتعبير عن الرأي الصريح والدفاع عن حق الأرض والإنسان ، والإيمان بالقيم الأخلاقية التي عاشت في وجدانه ، واستجابة واقعية لما يحيط به من أوضاع ، واستيعاب للمشاعر الإنسانية التي وجد فيها نفسه وهو يعبر عن كل مظهر يعتريه أو حالة يمر بها أو إحساس يستجيب له .

أما صوره وتراكيبه ، ومعانيه وأوزانه ،فإنها واجهة أخرى من واجهات تطوره ومرحلة من مراحل نضجه التي قطعها وهو يتكامل أوزاناً ويستقيم تراكيب ومضامين ، حتى استوى شعراً له قواعده وأبنيته ، يقتفي أثره الشعراء ويسلكون مسالكه التي تأثروا بها والتزموا ببنائها .

أما الشعر الذي وصل إلينا ، فحديث الميلاد ، وأول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ، والمهلهل بن ربيعة . فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له خمسين

ومئة عام ، أو مئتي عام قبل الإسلام كما يقول الجاحظ [1] وهو تحديد معقول بالنسبة إلى ما عرف من شعر ولم يقصد بهذا التحديد أن العرب لم يكن لهم شعر قبل هذا التأريخ أوأنهم قريبو عهد بنظم الشعر ، وإنّما كانت صورة الشعر المفقودة وحقيقة التطور الفني لبناء القصيدة ماثلة في ذهن المؤرخين وهم يتحدثون عن هذا العصر . وإذا كانت الأبيات المفردة أو المقاطع القصيرة التي بقيت أدلة على مجموعة من اسماء الشعراء المغمورين فإنها تؤكد البعد الزمني الذي قطعته القصيدة وهي تصل إلى التأريخ الذي حدده الجاحظ وعرفه المؤرخون الذين سبقوه ، فالشعر لا يظهر في أمة من الأمم فجأة وإنّما هو نتاج زمن طويل من عمر الأمة ، يمتد إلى أيامها الأولى ، ويساير الإنسان في رحلته الطويلة ويسجل أحاسيسه ويعبر عن مطامحه المشروعة وخياراته التي يرتضيها وهو يترنم في محفل أو يقف بين يدي ممدوح أعجبته خصاله أو يتحدث عن امرأة تلمس في مفاتنها أسباب الإعجاب ، أو يتفجر ألماً وهو يرى عزيزاً عليه أو بطلاً من أبطال قومه اختطفته السيوف أو صرعته الرماح .

(١) الحيوان ١ / ٧٤ .

من الخصائص التي عرف بها شعر ما قبل الإسلام وضوح معانيه بالنسبة إلى عصره وبعده عن التكلف والتزامه بصور التشبيه المعقولة ، ومن أجل ذلك كان وثيقة لمن يريد أن يعرف حياة ما قبل الإسلام ويقف على عاداتها وطبائعها وسلوك أبنائها وتقاليدهم وقيمهم ، فتشبيهاته منتزعة من عالمه المادي وأخيلته مستقاة من واقعه الحسي وقد حملهم هذا الاحساس وتمسكهم بهذه المنهجية على أن يستدقوا في وصف الأشياء ، ويفصلوا في دقائقها محاولين نقلها إلى قصائدهم نقلاً أميناً ، وانصرافهم لتوليد المعاني واستنباط الخواطر والوصول إلى الصورة الجديدة ، وقدرتهم على إشاعة الحركة في كل أنموذج وبثهم الحيوية التي تبعد عن الصورة حالة الجمود وتنزع عنها رداء الصمت والثبات .

أما التراكيب فصياغتها تامة تستوفي فيها العبارة مدلولها وتؤدي الجملة المعنى المطلوب وهي صورة أخرى تؤكد نضج المرحلة اللغوية التي قطعها الشعر وهو يعبر عن التجارب الطويلة التي تكاملت في بنائه من حيث وحدة الوزن أو اتحاد القوافي وحركتها وقد استعانوا لغرض التأثير في سامعيهم بطائفة من المحسنات البلاغية التي يُعدُّ التشبيه من أكثرها استعمالاً وأقربها إلى الحس الشعري والتعبير التصويري .

المعلقات قصائد طوال ، اختيرت من أحسن الشعر قبل الإِسلام ، تعبيراً ومضموناً وجمال أسلوب . فهي الصورة الناضجة الكاملة التي انتهت إليها تجارب شعراء ما قبل الإِسلام في تعبيرهم الأدبي . ولذلك غطت شهرتها ما سواها من شعر ما قبل الإِسلام، وصار لقائلها من الذِّكرِ والشهرة ما لم يظفر به غيرهم من شعراء ، واتخذها الأدباء والشعراء – بعد عصرها –قدوة يحاكونها حين ينظمون متأثرين بأسلوبها ولغتها وطريقة نظمها وتسلسل أفكارها ، محاولين أن يبلغوا في قصائدهم مبلغهم في معلقاتهم .

وللمعلقات منزلة عظيمة في شعر عصر ما قبل الإسلام فهي شاهد على طباعهم وأخلاقهم وعاداتهم وطبيعة تفكيرهم .

ولهذه القصائد أسماء كثيرة ، ومن هذه التسميات (المعلقات) وهي التسمية الغالبة والأكثر شيوعاً في العصور المتأخرة والمراد بها أنها القصائد التي وقع عليها الاختيار واستحسنها الناس فكتبوها وعلقوها على أستار الكعبة ، هذا هو تفسير القدماء لمعنى التعليق وأن هناك أكثر من رأي في تسميتها ، ومن هذه الآراء :

أنّ هذه القصائد لجودتها وامتيازها تعلق في الأذهان ، أو أنّ الإنسان تعلق بها ، أو أنّ هذه التسمية لها صلة بالعِلْق بمعنى الشيء الثمين النفيس .

ومن الراجح أن حمادا الراوية هو الذي اختار هذه القصائد المطولات ، وأنه عاش في النصف الأول من القرن الثاني الهجري ، وأن ذوقه هو الذي تحكم في الاختيار على وفق

الضوابط التي كان يجد فيها انسجاما مع القواعد النقدية المألوفة في عصره فجاءت هذه القصائد ، وأما أصحابها فهم :

١- الشاعر امرؤ القيس في معلقته التي مطلعها :

قفا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقطِ اللِّوى بين الدَّخولِ فَحَوملِ

٢- الشاعر طرفة بن العبد في معلقته التي مطلعها :

لِخولةَ أطلالٌ ببرقةِ ثهمد تلوحُ كباقي الوشم في ظاهرِ اليدِ

٣- الشاعر زهير بن أبي سلمى في معلقته التي مطلعها :

أمن أُمِّ أوفى دمنةٌ لم تكلّم بحومانةِ الدّراج فالمتثلمِ

٤- الشاعر لبيد بن ربيعة في معلقته التي مطلعها :

عَفَتِ الديارُ مَحلّها فَمُقامُها بمنّى تأبَّدَ غَولُها فرجامها

٥- الشاعر عمرو بن كلثوم في معلقته التي مطلعها :

أَلا هُبي بِصحنك فاصبحينا ولا تبقي خُمورَ الأندرينا

٦- الشاعر عنترة بن شداد العبسي في معلقته التي مطلعها :

هلْ غادرَ الشعراءُ من مُتردَّم أم هل عرفتَ الدارَ بعدَ توهُّمِ

٧- الشاعر الحارث بن حِلِّزَة اليشكري في معلقته التي مطلعها :

آذنتنَا ببينها أَسماءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منهُ الثواءُ

ومهما يكن من شيء فإن هذه القصائد التي أطلق عليها المعلقات أو القصائد الطوال كانت صورة واضحة للخصائص المشتركة التي اتفق عليها الشعراء والأنموذج الموثوق بهِ للشعر الصحيح بعد أن أجمع الشُّراحُ على صدق روايتها واتفق المؤدبون على اختيارها نماذج للشعر العربي يقوّمون بها ألسنتهم ويثرون حصيلتهم اللغوية ويدرسون النهج الفني لبناء القصيدة من خلال نماذجها .

امرؤ القيس

هو حُنْدُج[1] بن حجر بن الحارث من شعراء كندة وامرؤ القيس لقب من ألقابه ينتهي نسبه إلى بيت عريق من بيوتها . ولد في بني أسد فنال حظه من فصاحتها وشب في كنف قبيلة وفرت له أسباب النعيم وهيأت له عوامل البراعة في قول الشعر . وقد اشتهر هذا الشاعر بأسماء كثيرة منها حندجاً وعدياً ومُلَيْكة ، وكان يكنى بأبي وهب وأبي زيد وأبي الحارث ، ويلقب بذي القروح والملك الضِلّيل ، وأشهر لَقَبٍ عُرف به بين الناس (امرؤ القيس) والقيس صنم معروف من اصنام الجاهلية ، كانت العرب تتعبده وتنسب إليه .

وامرؤ القيس من أوائل الشعراء الذين وصل إلينا شعرهم ناضجاً مؤتلف الأجزاء لفظاً ومعنىً وتقترب أوصافه من بيئته وتعبّر تشبيهاته عن الحقائق الحسية التي يراها ... ولم يترك فناً من فنون الشعر التي اقتضتها حياته إلا ذهب إليه ، وأخذ منه بنصيب ، فقد ولج باب الغزل فأمعن فيه وقدَّم فيه من الصور ما بقيت تشهد له بالسبق والريادة .

أما الوصف فقد كان له فيه مذهب خاص وحسن لما يثيره في نفسه من ذكريات . فوصف الليل قد تأمَّله الشعراء الجاهليون بظلامه ونجومه المتلألئه وسحبه الداكنة ، وطول زمنه ووحشته، ومزجوا بين همومهم وأوصافه وترافق مع أوجاعهم وخيالهم وشوقهم وكان

(١) الحُنْدُج :- بضم الحاء والدال بينهما نون ساكنة ، أرض رملية خصبة تنبت ألواناً من النبات الطبيعي .

امرؤ القيس في مقدمتهم وصفاً .. فالصيد وهو وجه من وجوه اهتمامه يسوقه في جملة مفاخره .

إن رحلة الشاعر الشاقة في تسجيل المجد كانت حالة أخرى من حالاته التي ظل ينشدها في قصائده ويسعى إليها في نزوعه الكبير لاستعادة مآثر مملكته ، مملكة كندة العربية.

قال امرؤ القيس في معلقته يصف الليل ورحلة الصيد :-

(للدرس والحفظ : ٨ أبيات)

وليلٍ كموجِ البحرِ أَرخـى سدولَـهُ ... عليَّ بأنواعِ الهُمومِ ليبتَـلي (١)
فقلتُ لـه لمـا تَمطّى بصُلبهِ ... وأَردفَ أَعجازاً ونـاءَ بكَلْكَـلِ (٢)
أَلا أَيّهـا الليلُ الطويلُ ألا انجـلي ... بصُبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأَمثلِ (٣)
فيـالكَ من ليـلٍ كـأنَّ نجومَهُ ... بُكلِّ مُغارِ الفَتلِ شُدَّت بيذبُلِ (٤)
كـأنَّ الثُّريـا عُلِّقَتْ في مصامِهـا ... بأَمراسِ كتّانٍ إلى صُمِّ جَندلِ (٥)
وقَد أغتدي والطيرُ فـي وكناتِهـا ... بِـمنُجردٍ قَيد الأوابدِ هيكـلِ (٦)
مِكـرٍ مِفـرٍ مُقبلٍ مُدبرٍ معـاً ... كجلمودِ صخرٍ حطَّهُ السيلُ من عَلِ (٧)
كُمَيتٍ يَـزِلُّ اللبدُ عن حالِ مَتنْهِ ... كما زَلَّتِ الصفواءُ بالـمُتنَزّلِ (٨)
على العقُب جيّاشٍ كـأنَّ اهتزامَهُ ... إذا جاشَ فيه حَميُهُ غليُ مِرجَلِ (٩)
دَريرٍ كَخُذروفِ الـولـيد أَمـرَّهُ ... تقلّـبُ كفّيهِ بخيطٍ مُوصّلِ (١٠)
لـهُ أَيطـلا ظَبي وساقـا نعامةٍ ... وإرخاءُ سرحانٍ وتقريبُ تتفُلِ (١١)
كـأن على الكتفينِ منه إذا انتحـى ... مَداكَ عروسٍ أو صَراية حنظلِ (١٢)

اللغة

١- كموجِ البحرِ : يعني في كثافة ظلمته .

- السِدول : الستور ، واحده سِدْل .

- أنواع الهموم : أي بضروب الهموم .

- ليبتلي : ليختبر الصبر والجزع .

٢- تمطّى بصلبه : أي تمدد بثقل ظهره ثم تهيأ للنهوض كما يرجو الشاعر غير أنه (أردف أعجازاً) أي رجع بسرعة .

- ناءَ بكَلْكَلِ : أبعد صدرَه ، تهيأ لينهض .

٣- ألا انجلي : تمنى انكشاف الليل عنه بالصبح ولكنه تذكر بأنّ الليل والنهار على السواء كلاهما هموم ولافرق بينهما ، فالصبح ليس بأفضل من الليل .

٤- يَذْبَل : اسم جبل وقيل اسمه بَذْيُل .

- المغار : المحكم .

٥- الثريا : مجموعة نجوم أو النجم الشديد اللمعان الذي يظهر في آخر الليل .

- مصامها : مواقعها .

- أمراس كتان : حبال من الكتان .

- الجَندل : الحجارة الصلدة الصماء

٦- أغتدي : أبكر .

- وكناتها : مواضعها التي تبيت فيها .

- المنجرد : القصير الشعر .

- قيد الأوابد : السريع في السير الذي إذا أرسل على الاوابد قيدها أي صار لها قيداً .

- الأوابد : الوحوش .

- هيكل : هو الفرس العظيم الجسم .

٧- مكر : يكر إذا أريد ذلك منه .

- مفر : يفر .

- مدبر : إذا أدبر بعد إقباله .

- الجلمود : الصخرة العظيمة في اعلى الجبل .

- من علِ : من مكان عالٍ .

٨- الكميت : الفرس ذات اللون المخالط للأسود والأحمر وهو أصلب الخيل جلوداً وحوافر .

- اللبد : ما يتلبد من شعر أو صوف .

- حال المتن : موضع اللبد من الفرس أو وسط الظهر .

- الصفواء : الحجر الصلد الضخم ، لا يثبت عليه شيء .

- المتنزل : الذي ينزل على مهله .

٩- العقب : جري بعد جري .

- الجيّاش :الفرس إذا حركته بعقبك جاش وتزايد عدوه فلا ينقطع جريه .

- اهتزامه : صوته الشديد .

- جاش : هاج واضطرب وغلي .

- المرجل : القِدر .

١٠- الدرير : كثير الجري .

- الخذروف : قطعة من عظمٍ أو زرّ يدوّره الصبي بخيط في يده فيسمع له دوي وصوت .

- أمرّهُ : أداره .

١١- الأيطل : الخاصرة .

- الإِرخاء : ضرب من عدو الذئب .

- التقريب : أن يرفع يديه معاً ويضعهما معاً في العدو .

- التَتْفُل : ولد الثعلب.

١٢- انتحى : أعرض.

- المداك : الحجر الأملس الذي يسحق عليه . وخص مداك العروس لقرب عهده بالطيب.

- صراية حنظل : الحنظلة الصفراء البراقة .

التعليق النقدي

يعد امرؤ القيس من أوصف شعراء عصر ما قبل الإسلام لما حفل به ديوانه من أوصاف وما قدمه من تشبيهات وما استخدمه من ضروب البلاغة حتى عد من الأوائل في الوقوف على الطلل واستذكار الديار ووصف الليل. وذكر الحبيب والمنزل ، وتسخير خياله لاستنباط غريب المعنى من قريب المحسوس .. ويمكن أن نعد وصفه للطلل والديار والليل والصيد والفرس من أكثر الموضوعات التي أفرغ فيها قدرته ، ولوّن قصائده بإبداعه في اختيار التشبيهات واستحضاره لما يقرب في نفسه كل محاولة تعطي الموصوفات قوة التعبير وتضفي عليها طابع الحركة الحية ..

فالشاعر يصف الليل وهو يعاني من طوله بسبب الهموم التي انتابته ،ولكم كان يتمنى انجلاءه ليكشف الصبح عن نفسه ، حتى إنّه كان يتصور أن نجومه ربطت إلى جبل محكم الفتل فكانت واقفة لا تهجر مكانها . هذا يعني ان الشاعر أراد في وصف الليل توضيح معنيين أساسيين هما :-

اولاً :- استمرار الليل وطوله دون انتهاء .

ثانياً :- كثرة الهموم والأحزان التي تلازمه دائماً .

أما الصيد فهو موضوع له في نفسه طابع يجتمع فيه الغدو المبكر والمباغتة التي تحقق له الغاية ، وهي صورة حددت المعالم الفنية والاطار الذي يتحرك فيه كل الشعراء الذين يريدون أن يباشروا الصيد ... وأصبحت عبارة (وقد أغتدي) النغم الشعري

الذي يفتتح بها قصائد الطرد لأنّها المدخل المبكر للمعاني المباشرة التي تعطي أهمية للفرس – وسيلة الصيد – فالشاعر يصف فرسه وصفاً رائعاً ، وقف عند سرعته فكان قيداً لأوابد الوحش إذا انطلقت في الصحراء . وأنّها لا تستطيع افلاتاً منه كأنه قيد يأخذ بأرجلها ، وهو لشدة حركته وسرعته يخيل إليك كأنه يفر ويكر في الوقت نفسه ويقبل ويدبر في آن واحد ، وجلمود صخر يهوي به السيل من ذروة جبل عالٍ وأن لبده لشدة حركته ليسقط عنه وينزلق كما تنزلق الصخرة من منحدر عال وهو يصب الجري صباً ويسبق الخيل سبقاً ، ولا يثير غباراً ولا نقعاً ، وما إن يحركه راكبه حتى يغلي غليان القدر لا يتعب ولا يفتر وإذا ركبه لا يستطيع الثبات عليه ويشبهه الشاعر في سرعة انطلاقه بلعبة الخذروف الدوارة التي يلعب بها الصبيان وهو فرس ضامر كأنه ظبي نافر له خاصرتان نحيلتان ، وساقاه ساقا نعامة في الصلابة والضآلة ، وعدوه كإرخاء الذئب ، وتقريبه تقريب الثعلب ، وهي صور أربع تلتقي في اختيار ما يبرزها من حيث الضمور والقوة والسرعة ، ويبقى لَمَعَانُ ظهره إذا عرض للناظر كأنه طيب عروس أو حنظلة صفراء براقة لشدة ملاسة ظهره وصلابته ، وهي إضافة أخرى لما عرض له الشاعر يضفي من خلالها على فرسه هذه الخصائص متبصراً الواقع الذي يحيط به لرسم صورة امتلكت روعتها الجمالية وحركتها المذهلة ..

طرفة بن العبد

هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن عباد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة وكنيته أبو إسحق .. توفي والده وهو صغير .. وكان أحدث الشعراء سناً وأقلهم عمراً...

قتل وهو ابن ست وعشرين سنة - لذا يقال عنه (ابن العشرين) حتى إنه عندما سألوا لبيداً : من أشعر العرب ؟ فقال : الملك الضليل (يعني امرأ القيس) وابن العشرين (يعني طرفة) ..

يمتاز شعره بنضجه وائتلاف عباراته لفظاً ومعنى .. يقترب في أوصافه وتعابيره من بيئته. أنشأ في أغراض الشعر كافة من وصف ومدح وهجاء وغزل وفخر فكان شعره سجلاً صادقاً لمرحلته التأريخية على الرغم من تجربته الشعرية القصيرة ..

يقول عنه المفضل الضبي : (كان طرفة في حسب كريم وعدد كثير ، وكان شاعراً جريئاً على الشعر) إذ إن شعره الذي بين أيدينا يرسم شخصيته بوضوح ..

فهو الفتى الشجاع ، المتوقد حيوية ونشاطاً وهو الكريم الذي لا ينزل الاماكن الخفية ولا يتستر مخافة الضيوف ..وهو لا يتردد ولا يكسل ولا يتوانى عندما يُنتَدَبُ لأمر مهم كونه الفتى الذي ملأ نفسه ثقة واعجاباً بها وشعوراً بالتفرد والتميز ..

قال طرفة بن العبد في معلقته :-

(للدرس والحفظ : ٨ أبيات)

إذا القومُ قالوا : مَنْ فتىً ؟ خلتُ أنني ... عُنيتُ فلمْ أكسلْ ولم أتبلدِ (١)

فإن تبغني في حلقةِ القومِ تلقني ... وإن تلتمسني في الحوانيتِ تصطدِ

وإن يلتقي الحيّ الجميع تلاقني ... إلى ذروةِ البيتِ الشريفِ المصمدِ(٢)

كريم يرّوي نفسه في حياتِهِ ... ستعلم إن متْنا غداً أينّا الصدي(٣)

أرى الدهر كنزاً ناقصاً كل ليلةٍ ... وما تنقص الأيام والدهر ينفَدِ(٤)

أرى الموتَ يعتام الكرام ويصطفي ... عقيلة مال الفاحشِ المتشددِ(٥)

أرى قبرَ نحَّام بخيل بمالِهِ ... كقبرِ غويٍّ في البطالةِ مفسدِ(٦)

ستبدي لكَ الأيام ما كنتَ جاهلاً ... ويأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تزودِ(٧)

ويأتيكَ بالأنباءِ مَنْ لَمْ تبعْ له ... بتاتاً ، ولم تضربْ لَهُ وقتَ موعدِ

اللغة

١- خلت : ظننت .

- أتبلد : من البلادة - الجهالة - التجاهل .

٢- البيت الشريف المصمد : بيت الاشراف من الناس الذي يقصد في الحوائج .

٣- الصدي : العطشان .

٤- أرى الدهر : أرى العمر .

- ينفد : ينتهي .

٥- يعتام : يختار .

- الفاحش : القبيح - السيء الخلق .

٦- نحّام : بخيل - يقال رجل نحّام - إذا طلبت إليه حاجة كثر سعاله .

- غوي : الذي يتبع هواه ولذته .

٧- ستبدي : ستظهر .

- لم تزود : الذي لا تأبه له .

التعليق النقدي

يحاول الشاعر طرفة بن العبد في قصيدته هذه أن يبرر سلوكه بما يقدمه من فلسفة خاصة في الحياة .. فهو الحاضر في كل الأوقات والمناسبات في الداخل والخارج فالحياة عنده بداية نهايتها الموت الذي هو غاية كل حي فلا معنى لأن يحرص على المال حرصاً يحرمه المتعة والسعادة فالموت لا يفرق بين غني وفقير ، وإنهما يستويان في مصيرهما بعد الموت ...

فالشاعر يسخر بمن يقتر على نفسه وغيره ويمضي في شظف من العيش ... وقد أحس الشاعر الجاهلي بهذه المعاني وكان إحساسه بها قوياً ؛ لأنّ الجود بالمال من الفضائل التي يحرص عليها .. وقد بلغ من تأصيل هذه الفضيلة في البيئة الجاهلية أن ظهر فيها أشخاص أصبحوا رمزاً لها ينسب إليهم كثير من مظاهر الكرم كحاتم الطائي ..

وفلسفة الشاعر الحياتية فلسفة بسيطة واضحة مرتبطة باحساسه ارتباطاً وثيقاً متمثلاً بالابتعاد عن الغموض أو التعقيد ما يحول دون إدراك السامع لها في سهولة ويسر .. وهو يدعو إلى المحبة والتوادد مع انتزاع التشبيهات من طبيعة بيئته ...

هو زهير بن أبي سُلمى المزني نسباً والغطفاني نشأة وتربية ، عاش خلال الحروب التي نشبت بين عبس وذبيان ، حروب داحس والغبراء : وليس بين أيدينا ما يكشف عن نشأة زهير سوى اخبار متباعدة ، ولكنه يؤرخ في شعره لهذه الحروب التي أنهكت القبائل وأحرقتها في أتون الخصومات ، وتركتها نهباً لأطماع الدولتين الساسانية والبيزنطية. وقد انبرى لإيقاف نزيفها وحقن الدماء سيدان من سادات العرب هما هَرِمُ بن سنان والحارث بن عوف إذ تحملا ديات القتلى واعتدَّ زهير بهذه المنة الجليلة فأشاد بها في معلقته وظل طوال حياته يمدح هرماً ويمجده .

وحياة زهير من الوجهة الأدبية حياة حافلة بالمجد ، فقد ورث الشعر عن أبيه وخاله وكانت أختاه سلمى والخنساء من الشواعر . وورث ابناه كعب وبجير الشعر عنه ، واستمر في بيته اجيالاً ، وهي حال توحي بأهمية الشعر والتربية التي كان الأبناء ينشأون عليها فقد كان زهير يلقن أولاده الشعر ويرددونه عنه حتى تنطبع في أنفسهم طريقة نظمه وصوغه وتذكر الروايات أنه عُمِّرَ طويلاً ، ونهج زهير في نظم قصائده طريق الشعراء القدماء وهم يقدمون لبعض قصائدهم بالغزل والوقوف على الأطلال والحديث عن الديار وذكر الحيوانات التي ترتاد هذه الديار.وتأخذ الراحلة في قصائد زهير بعدها وهي تقطع الفلوات وتهبط الوديان وعلى هوادجها الستائر وتمر على منازل الاحلاف والأعداء وكانت براعة الشاعر تظهر في صوره التي يعرض لها عرضاً حياً ويضفي عليها ألوان الحركة وتتجلى براعة زهير في وصف

الوحش والصيد وهو يختار اللفظة المناسبة والعبارة الموحية والحيوان الذي يودع في ذكر أوصافه وسرعة حركته وذعره وهيئته وهو يتابعه وصفاً دقيقاً ويوفق بين التفاصيل الدقيقة التي يمكن أن تتركه صيداً تنوشه سهام غلامه ولم يترك الشاعر الوضع النفسي والحسي الذي تحكم في الاطراف المتحركة في الصورة ، وإنما أولاها من نفسه ما أغنى ابعادها وحرك كل نبضة من نبضاتها .

وحاول زهير أن يقدم من خلال صورة ممدوحيه النموذج الكامل من حيث الشجاعة والكرم والحلم والعفو عن المسيء في العشيرة والدفع بالمعروف من القول والعطف على الفقراء وتجنب الفواحش والآثام واقترنت هذه الصورة المثالية للرجل الفاضل في شعره بكثير من الحلم والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

وقد دفعه هذا إلى أن يذيل بعض قصائده من الأبيات التي تذهب هذا المذهب .

قال زهير :

(للدرس والحفظ ٨ أبيات)

وما الحربُ اِلّا مـــا علمتُم وذّقتمُ وما هو عنهـا بالـحـديث الـمرجّمِ
متـــى تبـــعثوها تبـعثوها ذميـمةً وتضـــرَ إذا ضـرَّيتموها فتُضـرمِ
فتعرككـــم عرك الرّحـــى بثفالهـا وتلقـــح كشافـاً ثم تنتـج فتتئمِ
فأقسمتُ بالبيتِ الذي طافَ حَولهَ رجـــالٌ بَنوهُ من قريش وجُرْهُمِ(١)
يـمينـاً لَنِعمَ السيدان وُجِدتُـمـــا على كل حالٍ من سَحيلٍ ومُبْرمِ(٢)
تداركتُمـــا عبساً وذبيانَ بَعَدْمـــا تَفـانَوا ودَقُّوا بينَهم عِطرَ مَنْشِمِ(٣)
وقد قُلتمـا إن نُدرِك السّلم واسعـاً بـمالٍ ومعروفٍ من القولِ نَسلَمِ(٤)
فـأصبحتما منهـا على خيرِ موطنٍ بعيدينِ فيهـا من عُقوق وَمـأثمِ(٥)

وقال أيضاً :

ومَنْ هـاب أسبـابَ الـمنايـا ينِـلنَه ولو رامَ أسبــابَ السمــاء بسُلّـمِ
ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخل بفضـــله علـى قومـه يُستغنَ عنـهَ ويُذمـَمِ
ومَنْ يغتربْ يَحْسَب عدواً صديقَـه ومَنْ لا يُكـرّم نفسَـهُ لــم يُكـرَّمِ
ومن لا يصـــانع في أمـورٍ كثيـــرةٍ يُضرّسْ بـأنيـابٍ ويوطـأ بِـمنْسِمِ
ومنْ يجعلِ المعروفَ من دون عرضِه يَفِرْهُ ومَنْ لا يتّقِ الشتـــمَ يُشتــمِ
ومهمـا تكنْ عند امرئٍ من خليقـةٍ وإن خالها تخفى على الناسِ تُعلمِ

١- البيت : بيت الله الحرام (الكعبة) .

- جرهم : قوم ، كانوا أرباب البيت قبل قريش .

٢- يميناً : قسماً .

- السحيل : خيط واحد لم يبرم مع غيره ، والمقصود هنا الأمر السهل .

- المبرم : خيطان يبرمان فيصيران خيطاً واحداً ، الأمر الشديد ، يعني أنتما خير الرجال في الرخاء والشدة .

٣- مَنشِم : اسم امرأة اقترن اسمها بهذا العطر لأنها كانت تبيعه للمتحاربين .

٤- السلم : بكسر السين وفتحه أيضا : الصلح .

- واسع : ممكن .

٥- خير موطن : خير مكان ومنزلة .

- العقوق : القطيعة بين الأهل والأقرباء والأصدقاء .

- المأثم : ما يصيب الإنسان من الإثم .

التعليق النقدي

من العوامل المؤثرة في حياة زهير ، والمؤكدة له التميز الشعري ، قدرته في متابعة الحدث وشدة ملاحظته في الاستقصاء ، ونشوؤه في بيئة شعرية ، ومعاصرته لحرب طاحنة أنطقت الشعراء ، فكانت مصدر شعر كثير ، وعظمت مآسيها فكان الشعر وسيلة لإخماد لهيبها وإيقاف نزيفها ، وتعظيم من سعى لإِصلاح ذات البين وإسكات صوت الفتنة .

وقد أحسن الشاعر في التعبير عن صدق إحساسه في تخليد سيدين من سادات العرب تحملا ديات القتلى وأصلحا ما تمزق من أمر القبائل ، وقد حمله إعجابه على الإشادة بالسلم فكان صوتاً يجابه فكرة الثأر ، ويخرج على المألوف من تأجيج أسبابه متجاوزاً ما درج عليه كثير من الشعرا ء فانضم إلى مجموعة الأصوات الداعية للسلام .

وزهير يقدم قصيدته بين رجلين كريمين وسيدين عظيمين حين سعيا بالصلح بين ذبيان وعبس ، وأعلنا أنهما يتحملان ديات القتلى حتى تضع الحرب أوزارها بين القبيلتين المتناحرتين ، وتصادف في أثناء ذلك أن قتل الحصين بن ضمضم عبسياً ثأراً لأخيه هرم بن ضمضم وكان قد قتله ورد بن حابس العبسي فثارت عبس وشهرت سيوفها تريد أن تعيد الحرب ، وسرعان ما تقدم الحارث بمئة من الإبل ، فقبلوا الدية ودخلوا في الصلح

وانتهت الحرب الدامية وقد أشرقت في معانيه صورة الاحساس بنزعة الخير ، وإيمانه بقدرة الإِنسان على تجاوز الحالات السلبية التي تعتريه .

فالشاعر يصور الحرب بصور مخيفة مفزعة فهي تارة نار مشتعلة ، وتارة رحى تطحن الناس وتارة ثالثة تلد ، ولكنها لا تلد إلا ذراري شؤم .

هو زياد بن معاوية . لقب بالنابغة لنبوغه في شعره وتفوقه فيه – وهناك مجموعة من الشعراء المخضرمين والإسلاميين لقبوا بهذا اللقب... كان من أشراف ذبيان ، صاحَبَ النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، ولزمه زمناً طويلاً يتغنى بمناقبه ويشيد بمآثره، وأصبح من المقربين إليه . وقد حفل شعره بهذه المدائح التي عُرِفت بصدقِ عواطفها وأَصالة قيمها . وتؤكد أخبار الشاعر على أنَّ حادثاً حدث اضطره إلى مغادرة بلاط المناذرة ، والتوجه إلى بلاط الغساسنة ، حتى أوقع الغساسنة بذبيان واحلافهم وقعة منكرة إِثر تجاوزهم على بعض المراعي التي منعوا القبائل من ارتيادها . ولم يجد النابغة بُدَّاً من أن يسعى إلى الغساسنة وأن يمدحهم حتى يكفوا عن قومه ويردوا الحرية إلى مَن سبوه، وظل في بلاط الغساسنة يبالغون في إِكرامه ويبالغ في مديحهم ، فكانت سفارته ذات فوائد جليلة ، وما زال يرعى مصالحهم حتى توفى عمرو ثم مَلَكَ أخوه النعمان ، فعاد إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة وكانت بداية اعتذارياته قد قدمها إليه فعفا عنه ، وعاد إلى بلاطه وحظي برضاه.

نالت مدائحه مكانة متميزة ، لأنها صدرت عن وفاء خالص عبرت عن التزام أَخلاقي وأنّ اعتذارياته كانت تمثل الصّوت الحضاري واللهجة البعيدة عن الجفوة ، والرقة في التعبير ، والتلطف الذي يزيل من نفس النعمان ظنه السيِّء وقد أعانته على هذا التفوق في هذا الضرب الشعري لطافته الحضارية ومعرفته التي اكتسبها جرّاء تردده على المدن وذوقه الذي اختفت منه خشونة البادية .

قال في اعتذارية له :

(للدرس)

وعَيدُ أبي قابوسَ في غيــر كُنْهِــه
أتــاني ودُوني راكسٌ فالضواجعُ [١]
فبِتُّ كــأني ســـــاورتْني ضَئيلــةٌ
من الرُّقش في أنيابهـا السمُّ ناقعُ [٢]
يسهَّد من ليـــل التَّمـــام سَلِيمُها
لحِـلْي النســـاء في يديه قَعاقعُ [٣]
تنــاذرهــا الــراقون من سوء سَمِّهــا
تُطـلِّقــه طــــوراً وطوراً تُراجعُ [٤]
أتــاني ـ أبيتَ اللَّعـن ـ أنـك لُـمتني
وتلك التي تَسْتَكُّ منها المســامعُ [٥]
مقــالة أن قد قلت : سَوف أنــالُــه
وذلك من تلقـــاءِ مثـــلك رائـــعُ
حلفتُ فــلـم أتــرك لنفسك ريبــةً
وهـــل يأثَمَنْ ذو أمَّةٍ وهو طائعُ [٦]
وكَـــلّفتني ذنبَ أمـرىءٍ وتـركـتَــهُ
كَذي العُرِّ يُكوَى غيرُهُ وهْو راتعُ [٧]
فإن كنتَ لا ذو الضِّغْنِ عني مكذَّب
ولا حـلِـفي عند البــراءة نــــافعُ
ولا أنــا مـــأمون بشـيء أقولُـــه
وأنت بــأمــرٍ لا محــالـــة واقعُ
فــإنك كــالليــل الذي هو مدركــي
وإن خِلتُ أن المنتــأى عنك واسعُ [٨]

اللغة

(١) في غير كنهه : كنهه : حقيقته ، يريد على غير ذنب منه .

راكس : وادٍ في منازل بني أسد . الضواجع : منحنى الوادي.

(٢) ساورتني : لدغتني . ضيئلة : أفعى دقيقة الجسم .

الرقش : جمع رقشاء : وهي المَنَقَّطَة نقطاً بيضاء وسوداء . ناقع : قاتل.

(٣) يسهد : يمنع من النوم . ليل التمام : أطول ليالي الشتاء . السليم : الملدوغ .

قعاقعُ: أصوات. كانوا يجعلون الحلي في يد الملدوغ اعتقاداً منهم بأنها تشفيه.

(٤) يقول من خبثها لا تجيب الراقي . بل مّرة تجيب ومّرة لا تجيب .

تناذرها الراقون: خوف بعضهم بعضاً منها .

(٥) تستك : تضيق .

(٦) أمَّة : هنا دين .

(٧) العُر : الجرب . كانوا يداوون الإبل منه بكيها .

(٨) المنتأى : المكان النائي البعيد.

التعليق النقدي

يقول النابغة في أبياته : إنّ وعيدك أتاني وأنا آمن في قومي وبيني وبينك منازل بني أسد ومن وراءهم فألمت حفظاً للعهد وبت مسهداً كأنما لدغتني أفعى ، وهي صورة بارعة وقد أخذ يدقق فيها حتى يجسم ألمه ، فهي أفعى من الرقش تستودع السم في أنيابها الحادة ، فمن عضته علق عليه أهلّه الحلي والخلاخيل حتى يفيق ويبرأ ، ولا يغفو لكيلا يسري السمُ في جسمه.

وهي من الأفاعي الخبيثة التي قلما أجابت الرقى ، وأنّ الرقاة والحاوين ليرهبونها ويتخوفون من أن يطأوا حماها . ويصور النابغة للنعمان فزعه حين أتاه أنه يلومه ، ويحلف له بأيمانه الوثنية (ويختار هنا الحلف بالإبل التي كانوا ينذرونها لآلهتهم . ويقف ليعطينا صورة عن هذه الإبل ، فهي تقبل على مكة مسرعة سرعة السهام ، حتى لكأنها تباري الريح وقد أجهدت من السير وطول السفر ، حتى إن بعضها سقط في الطريق إعياء ، فلم ينبعث ولم يستطع براحاً ، وقد بقي عليها شعث مغبرون يقصدون الحج . وقد أخذها النحول حتى لكأنها القسي الضامرة) وهذا اليمين العظيم يقسم به متنصلاً مما سمع عنه بعض الوشاة أنّه انصرف إلى الغساسنة يمدحهم ويهجوه ، وكان حرياً به ـ أي بالملك ـ أن ينزل سخطه على الواشي وإلا فمثله ومثل من وسوس للنعمان مثل البعير السليم يكوى من الجرب ، والأجرب راتع بجانبه لا يصيبه كيٌّ ولا أذى . وهي صورة أخرى بارعة .

ويقول : «إن كنت لا تكذب مَنْ يضطغن عليَّ ولا تصدق يميني ولا حلفي فما أحراني بالرهبة منك والخوف من بطشك» . ويودع ذلك صورة رائعة ، إذ يتخيل النعمان كالليَل لا مفر لشخص من أن يطبق عليه.

إن فن الاعتذار في أبيات النابغة يتخذ صفة المدح بنغمية شفافة وباستخدام أسلوب بليغ يتناسب ومخاطبة السلطان بلغة جزلة ذات ايقاع موسيقي رقيق ووصف رائع ينقل كوامن النفس وخلجاتها للوصول الى غايته وهي العودة الى بَلاط دولة المناذرة (دولة النعمان بن المنذر).

وهي صورة اخرى لحياة إنسان الجزيرة العربية ، وانعكاس لأثر اعتزازه بانتمائه لقومه وولائه للسلطان واحترامه لسادته ، فجاءت الصورة التي رسمها النابغة وغيره من الشعراء معبرة عن مساقات الحياة الخاصة والعامة ، وعن إيجابيات الحياة وسلبياتها لمجتمع رسمته الصورة الشعرية بألوان يشع نورها كلما تقادم الزمن.

الأعشى

هو ميمون بن قيس وسمي الأعشى لضعف بصره وكان يكنى بأبي بصير وللأعشى بين شعراء العرب قبل الإسلام منزلة رفيعة واضحة في كثرة قصائده الطويلة وتنوع فنون الشعر التي طرقها من مدح وهجاء وفخر ووصف وغزل وحماسة ، وقد أهَّلته أَسفاره الطويلة التي جاب بها أطراف الجزيرة للوقوف على مواقع كثيرة ، ويتحدّث عن رحلته التي استغرقت أكثر مقدمات قصائده حتى أوشك أن ينفرد بهذه الصفة ، وعرض لتشبيهات جديدة وخاصة عن ذكر الناقة التي كانت رفيقة سفره وصاحبة حله وترحاله. ولوَّن شعره بنماذج حضارية برزت فيها رقته ووضح في أبياته تأثره بما زاره من مراكز الحضارة في اليمن أو اليمامة واختلاطه بأهل الحضر .

ولعل قصائد المديح التي أفرط فيها بوصف ممدوحيه وبالغ في أوصافهم إلى حدٍّ الإسراف والإفراط تكشف عن هذا التأثر وتبعده عن المديح الذي كان معروفاً عند معاصريه ، ولابُدَّ أن يكون الفخر باباً من أبواب شعره التي نالت حظاً وافراً لشعوره بأهمية هذا الفن ليجمع فيه المفاخر والمآثر ، وليتمكن من تهيئة الجو المناسب لمجابهة الخصوم وإعداد أبناء قومِه إعداداً نفسياً في عصر احتدم فيه الصراع وتعرضت الجزيرة العربية لتحديات خطيرة.

قال الأعشى في وصف محبوبته هريرة :

(للدرس والحفظ : ٨ أبيات)

ودِّع هـريـرةَ إنَّ الـركبَ مرتَحِـلُ	وهـل تُطيقُ وداعــاً أيهــا الرجــلُ (١)
غـرَّاءُ فـرعـاءُ مصقـولٌ عوارضُهـا	تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحلُ (٢)
كـأن مشيتهـا من بيت جـارتهـا	مَرُّ السحــابة لا رَيْثٌ ولا عجــلُ (٣)
ليست كمن يكره الجيران طلعتهـا	ولا تـراهـا لسرِّ الجــار تختتــلُ (٤)
يكـاد يصرعهـا لـولا تشدُّدهـا	إذا تقـوم إلـى جارتهـا الكســلُ (٥)
إذا تقـوم يضوع المسـك أصْوِرَةً	والزنبق الـورد من أردانهـا شَمــلُ (٦)
مـا روضة من ريـاض الحَزْنِ معشبة	خضراءُ جـاد عليهـا مسبلٌ هطَلُ (٧)
يضاحك الشمس فيها كوكب شَرِقٌ	مـؤزَّرٌ بعميـم النبـت مُكـتَهــلُ (٨)
يـومـاً بـأطيب منهـا نشرَ رائحـة	ولا بـأحسن منهـا إذ دنا الأُصُــلُ (٩)

اللغة

١- هريرة : اسم محبوبته ، - الركب : جماعة الإبل في القافلة .

٢- غرَّاء : بيضاء ناصعة الجبين ، - الفرعاء : الطويلة الشَّعْر .

- العوارض : الأنياب والرباعيات.

- تمشي الهوينا : أي على رِسلها ، ليست بوثابة .

- الوجي : البعير الذي يشتكي خُفَّه ، - الوَحِل : من الوحل وهو الطين .

٣- الريث : البطء .

٤- تختتل : أي ، لا تفعل هذا لتسمع السرَّ .

٥- يصرعها الكسل : تسقط على الأرض .

٦- يضوع : يذهب ريحه بعيداً ، - الزنبق : ما كان يضرب إلى الحمرة من الورد

- شَمِل : عام محيط .

٧- الحَزْن : بفتح الحاء وسكون الزاي ، المكان المرتفع ، - مسبل هطل : مطر غزير .

٨-يضاحك الشمس : يدور معها حيث دارت ، - كوكب كل شيء : معظمه .

- شَرِق : ريَّان ممتلئ . مؤزر : من الإزار ، والمقصود بها الإحاطة .

- العميم : التام الحسَن ، - مكتهل : انتهى في التمام .

٩- نشر رائحة : طيبة ، - الأُصُل : جمع أصيل ، وهو ما بين العصر إلى المغرب .

التعليق النقدي

تخرج القصيدة عن النمط المألوف من حيث الالتزام بمنهجية المطالع الطللية إذ ان الشاعر يتحدث عن وداع (هريرة) التي جعل وداعها أثراً موجعاً بعد أن تهيأ الركب للرحيل - ولم يجد من الوداع بُداً ولكن حالة الضعف التي بدأت تتسرب من خلال الاستفهام الذي حدده الشاعر والتساؤل الحاد الذي استدرك به الأمر يؤكد حالة الضعف والتردد التي داخلت حديثه وأوشكت أن تفقد الفعل قدرته وهو يتراجع باستعمال الفعل (تطيق) وتأكيد التشخيص حين خاطب نفسه بالرجل :

.... وهل تطيق وداعاً أيُّها الرجل

فالشاعر يبتدئ بالوداع الذي لم يجد نفسه قادراً عليه بعد أن بدأ خيال (هريرة) يتمثل له بصورتها الوضيئة وشعرها المسترسل وثغرها الذي نصعت عوارضه (رباعياته وأنيابه) وخطواتها الوادعة وخفة حركتها وقد شبهها لبطئها بحركة البعير الذي يشتكي خفه وهو يسير في الطين.

(تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل) .

لقد أضفى الشاعر في قصيدته هذه جانباً إنسانياً بعد أن أظهر من خلقها السمح وقد اكتسبت إعجاب من جاورها زيادة على إضفاء الصفات التي تناسب المقاييس المطلوبة للمرأة فهي مكتنزة القدّ – حسنة الخلق – مترفة منعمة – مقاربة الخطو إذا مشت وإذا قامت فاض المسك حتى ملأ دروبها فاختلط برائحة الزنبق الذي يعطر أردانها ...

واختار الشاعر (الزنبق الورد) بوصفه أجودها وزينه بالحمرة لوناً مشرقاً يدخل البهجة ويبث في النفس الرغبة لمتابعة اللوحة المزهرة وتبقى مفردة (الأردان) نابضة بموسيقاها اللفظية ودلالتها الحسية وإيحائها المجسد بتقريب أطراف الأكمام لتظل الترافة مصاحبة للحدث ومثيرة للمشاعر ومؤثرة في متابعة المفردات المتداخلة في اكتمال اللوحة الفنية للقصيدة ، وقد استعاض الشاعر بالمفردات عن اللون التشكيلي ؛ لأن اللفظة تمزج بين الصوت والصورة أكثر من غيرها .

السموأل

السموأل بن غريض بن عاديا : شاعر جاهلي توفي في سنة ٥٦٠م يُضرب به المثل في الوفاء لأن الشاعر امرأ القيس قد أودعه بعض الدروع وطلب منه أعداؤه هذه الأمانة فلم يسلمها . وظفروا بابنه ، فهدّدوه فلم يخن الأمانة ، بعد أن قتلوا ولَده أمامه .

يقول الشاعر في الأخلاق والقيم الاجتماعية :

(للدرس والحفظ : ٨ أبيات)

إذا المرءُ لم يدنَسْ من اللَّؤمِ عِرضُهُ   فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلُ(١)
وإنْ هو لمْ يحملْ على النفسِ ضَيمَها   فليس إلى حُسْن الثناءِ سبيلُ(٢)
تعيّرنا أنّا قليلٌ عديدُنا   فقلتُ لها : إنّ الكرام قليلُ
وما قلّ مَن كانت بقاياه مثلَنا   شبابٌ تسامى للعلى وكهولُ
وما ضرَّنا أنّا قليلٌ وجارُنا   عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلُ
وإنّا لقومٌ لا نرى القتلَ سُبّةً   إذا ما رأته عامرٌ وسلولُ(٣)
صَفَوْنا فلمْ نكدَرْ وأخلصَ سرُّنا   إناثٌ أطابتْ حملنا وفحولُ
ونُنكِرُ إنْ شئنا على الناسِ قولَهم   ولاينكرون القولَ حين نقولُ
إذا سيّدٌ مِنّا خلا قام سيّدٌ   قؤولٌ لِما قال الكرامُ فَعولُ(٤)
وما أُخمِدَتْ نارٌ لنا دونَ طارقٍ   ولا ذَمّنا في النازلين نزيلُ(٥)
سلي إنْ جهِلتِ الناس عنّا وعنهُمُ   فليس سواءً عالمٌ وجَهولُ

معاني المفردات

١- يَدنس : يلوث ويلطخ .

٢- اللؤم : اسم جامع للخصال المذمومة .

- الضيم : تحمل الشدائد .

- الثناء : الشكر والحمد.

٣- السُبة : العار.

- عامر وسلول : قبيلتان عربيتان .

٤- خلا : مضى.

٥- طارق : الضيف الذي يطرق الباب ليلاً.

التعليق النقدي

القصيدة في الحماسة والفخر والتأكيد على القيم الأخلاقية .. إذ يبدأ الشاعر قصيدته بأبيات الحكمة والدعوة إلى الأخلاق الحميدة .. مع تأكيده على الصبر في تحمل المكاره من أجل اكتساب ثناء الآخرين .. ثم ينتقل إلى الفخر .. والفخر عادة عربية يقوم الشاعر من خلالها بالدفاع عن القبيلة فينزهها من المعايب والمساوئ .. وصفاء أنسابها وأعمالها ... مفتخرة بأعمالها الحسنة .. حتى إنها لكثرة كرمها تديم إيقاد النار الرمز ، الدال على الضيافة فهم لا يطفئونها في وجه طارق ليل من الضيوف .. فيثني عليهم كل زائر لذا كانت خاتمة القصيدة سؤال الشاعر الموجه إلى فتاة ودعاها للسؤال عن خصالهم ومنزلتهم الاجتماعية وما هم عليه من طبائع لا تمل الضيف ولا تعرف البخل ؛ لذا يؤكد الشاعر التفاوت بين العارف والجاهل.

٢ - النثر

تؤكد المصادر الأدبية التي وصلت إلينا أن النثر قبل الإسلام لم يجد العناية التي وجدها الشعر لأسباب كثيرة ، منها ما يتعلق بالوزن والقافية التي جعلت الشعر أحفظ من الضياع . ومنها اهتمام العرب بالشعر ، واستخدامهم اللغوي لكثير من الألفاظ والعبارات التي تشوقهم إلى مراجعة الشعر وترديده والاستمتاع بروايته ، وتضمين الشعر للثقافات القديمة والاسترسال في ذكر القصص والأساطير التي لم تجد مجالها في النثر ، ومع أن الاهتمام انصرف إلى الشعر بسبب هذه العوامل فإن النثر قد أخذ طريقه إلى ذاكرة الرواة فحفظوا جانباً قيماً من أمثال العرب وخطبهم ومنافراتهم وأسجاعهم وأخبارهم وأيامهم ، وعبر العرب بالنثر عن شعورهم وفكرهم ووجودهم وما تحسسوه من أحوال ، واحتاجوا إليه من مواقف ، وإنّ امتداده يصل إلى فترات قديمة تمثلت فنونه في :

١ - الأمثال .

٢ - الخطب .

٣ - الوصايا .

٤ - الأخبار والحكايات .

الأمثال

(للحفظ ٥ أمثال)

للعرب في عصر ما قبل الإسلام مجموعة كبيرة من الأقوال التي ذهبت أمثالاً لاقترانها بحادثة مهمة في حياتهم ، وتصويرها تجربة معينة ذات مدى يكشف الشيءَ الكثير عن أخلاق العرب وأحوالهم النفسية والاجتماعية .

وكثيراً ما كان المثل يتمخض عن قصة أو أسطورة لها دلالة كبيرة في نشأة هذا المثل أو ذاك ، وقد تكون الأمثال نثراً أو شعراً ، الأمر الذي دفع الباحثين إلى جمعها وترتيبها وشرحها وسرد قصصها وأساطيرها ، لأنها من مصادر اللغة العربية الفصحى التي يُعْتَد بها في المناقشات النحوية والبلاغية والأدبية ، وشواهد تمثلُ مرحلةَ نقاءٍ وصفاءٍ للغةِ العربيةِ . وقد جمع (الميداني) طائفة كبيرة منها في كتابه « مجمع الأمثال » .

تتميز الأمثال من حيث الصياغة بأنها جمل قصيرة ، موجزة ، غزيرة في المعنى والدلالة التي تضرب لها والمناسبة التي تقال فيها ، والأمثال في إيجازها وموسيقاها تمثل بلاغة العربي قبل الإسلام ومقدار ما وصل إليه من قوة التعبير ، ونلاحظ في بعض جوانبها اهتماماً بالتصوير الدقيق لحادثة ؛ لذلك قيل في أمثال ما قبل الإسلام بأنها نهاية البلاغة . وإليك طائفة من الأمثال :

(١) إنَّ الهزيل إذا شبع مات – يُضرب لمن استغنى فتجبَّر .

(٢) أولُ الشجرةِ النواة – يضرب للأمر الصغير يتولد منه الكبير .

(٣) أمُّ الجبانِ لا تفرحُ ولا تحزنُ – يضرب لمن لا يأتي بخير ولا شر أينما توجه لجبنه .

(٤) تجوعُ الحّرة ولا تأكل بِثَديَيها – يضرب في صيانة الرجل الكريم نفسه عن المكاسب الخسيسة .

(٥) إن أخاك من آساك – يضرب في الحث على مراعاة الأخوة والإِخوان .

(٦) استنوق الجمل – يضرب مثلا لمن يظهر بمظهر ، فيخلف الظنّ به بتصرفٍ سيّءٍ يبدو منه .

(٧) بَرقٌ لو كان له مطرٌ – يضرب لمن له حسن منظر ولا معنى وراءه .

(٨) يخبط خبط عشواء – يضرب مثلا في التعثَّر وضلال القصد .

(٩) حلب الدهر أشطُرَه – يضرب مثلا لمن عرك الدهر واختبره .

(١٠) مقتلُ الرجلِ بين فكّيه – أي لسانه وما يتكلم به .

يعتري صورة الخطابة قبل الإسلام بعد المسافة بين العصر الذي قيلت فيه وعصور تدوينها . و لكن الحقيقة الثابتة هي أن العصر شهد حضوراً لهذا الفن الأدبي بعد أن تهيأت له أسباب هذا الحضور من تمرسٍ على أساليبها ، وحفظ لما ظل حاضراً في أذهان رواتها ، وحرية في التعبير عن دواخل النفس ومناظرات يتبارى فيها الخطباء الذين شهدت لهم الأندية الخطابية بالقدرة ، وعرفتهم محافل الأسواق بقوة الحجة وقد اتخذوا من مجالسهم في مضارب خيامهم ومن أسواقهم التي عرفتها الجزيرة العربية وساحات الأمراء الذين عرفوا وفادتهم ميادين لإظهار براعتهم وتفننهم في القول ، وقد أسعفتهم ملكاتهم البيانية التي فطروا عليها من ألسُنٍ فصيحةٍ ، وبديهةٍ حاضرةٍ وقدرةٍ على الارتجال حتى أصبح الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر وله أقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان ارفع . وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل وهو عليهم أيسر من غير تكلف ولا قصد . لقد اسهمت هذه العوامل في ازدهار الخطابة وتنوع فنونها وتناولها أغراضاً مختلفة فاستخدمت في تعزيز الثقة بالنفس والاحساس بضرورة الحفاظ على المآثر والمناقب ، والتأكيد على حق الدفاع عن النفس والأرض وبعث أسباب المجابهة لكل محاولة غادرة أو هجمة ظالمة أو اعتداء أثيم . والدعوة إلى اصلاح ذات البين وفض المنازعات ونبذ الاحقاد وتوحيد الصفوف ، والإشادة بكل ما يدعو إلى الحفاظ على المبادىء الكريمة والخصال الحميدة والفضائل الخيرة .

وكثيراً ما تكون الوفادة منبراً للوقوف ، بين يدي الأمراء للتحدث بلسان القوم وإظهار الرغبة في توثيق عرى الاحلاف أو الرد على تساؤلات يجدون أنفسهم ملزمين

للرد عليها أو دحض أسبابها وقد حرصت القبائل على اختيار رؤساء وفودها ممن عُرِفَ بمكانته وشهد له بالشهرة في مجال الخطابة والروعة في فنونها ، ليأخذوا دورهم في الاسواق. فكانت ميداناً فسيحاً لامتحان قدراتهم إذ يقدم الخطباء النصح والارشاد والتوجيه والتذكير بالعمل الخالد والحفاظ على قيم الوفاء والشجاعة والبطولة .

قال قس بن ساعدة في خطبة له :

(للحفظ)

(أيها الناس اسمعُوا وعوُا . . إنَّ مَنْ عاشَ ماتَ ، ومَنْ ماتَ فات ، وكل ما هو آتٍ آت . . ليل داجٍ ، وسماء ذات أبراجٍ . . مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا بالمقام فقامُوا ؟ أم تركَوا هناك فَناموا . .)

الوصايـــــــا

للوصايا في الأدب العربي نَمَطٌ خاص تميز بقصر عبارته ونضج فكرته وخلاصة تجربته. وقد شهد النثر العربي هذا الأدب وهو يصدر عن أب يوصي ابناءه أو حكيم يعظ أبناء قومه ، أو أُمٍّ تضع ابنتها على الطريق القويم . وقد تميزت بالإيجاز والبلاغة والتوجيه والدعوة إلى مكارم الأخلاق والتعاون بين الناس والأخذ بالمثل العليا والحض على الالتزام بكل ما يدعو إلى التماسك ، تصدر في أغلب الاحيان عن رجل عرف بحكمته ، واشتهر بثاقب بصيرته ، وهي تحكم ضوابط التعامل ، وتحدد المقاييس التي يراها هؤلاء المجربون صالحة للوفاء بسنة الحياة والاحسان إلى مجموع الناس ، والتبصير بعواقب الأمور والتذكير بالعمل الخالد والقول الحسن والتعامل الصادق .

ويمكن إيجاز خصائصها بما يأتي :

١ - نقاء ألفاظها وقصر عباراتها وتماسك معانيها واستعمال السجع فيها .

٢ - وضوح التجربة الحياتية في معانيها وصدورها عن شخص تقدمت به السن أو حضرته الوفاة .

٣ - نزوعها إلى التوجيه والحث على مكارم الأخلاق والتأكيد على صلاح الفرد .

٤ - التوجيه فيها جماعي للمخاطبين من الأبناء والعشيرة .

وصية ذي الإِصبع العَدْوَاني لابنه أُسَيْد

لما احتُضِر ذو الإِصبع دعا ابنه أُسيداً فقال له :

(للدرس والحفظ : ٥ أسطر)

(يا بني إن أباك قد فَنِيَ وهو حيٌّ ، وعاش حتى سئم العيش وإني موصيك بما إن حفظتَه بَلَغْتَ في قومك ما بلغته ، فاحفظ عني : - أَلِنْ جانبك لقومك يحبوك وتواضع لهم يرفعوك ، وأبسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسوّدوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمْك كبارُهم ، ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، وأعزز جارك ، وأعِنْ من استعانَ بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرِع النهضة في الصريخ [1] ، فإنّ لك أجلاً لا يعْدوك . وصُنْ وجهَك عن مساءَلة أحدٍ شيئاً فبذلكَ يتمُ سؤددك) .

١- الصريخ المستغيث .

الأخبار والحكايات

من الطبيعي أن تشغل الحكايات مساحة واسعة من حياة العرب ؛ لأن فيها استذكاراً لأخبارهم واستعادة للعبرة التي حفل بها تاريخهم . وقد حفلت بها مجالس السمر وهي تروي أحداثاً يجدون فيها إحياء لقيم كريمة وتمجيداً لمآثر محمودة فتستهويهم أحداثها وترهف أسماعهم أخبارها ، ويتابعون كل خبر من أخبارها بشوق ولهفة.

وكان الاخباريون يفيضون على حكاياتهم من خيالهم ما يجعلها محببة إلى النفوس شائقة للسامعين تتداخل فيها الحكاية المؤثرة والخبر المحبب والقصة المثيرة ، أما أخبار الرجال والأيام والحروب وما سجل فيها من بطولات وجاء فيها من انتصارات فكانت لوناً شائعاً من ألوان القصص تبقى أخبارها عالقة في الذهن ، ماثلة عندَ كل موضع استشهاد ، وبقيت هذه القصص تُروَى طوال القرن الأول الهجري حتى تناولها منهم لغويو القرن الثاني للهجرة ورواته فدونوها تدويناً منظما ، ثم توالى التأليف في هذا الباب والعناية به .

مقدمة موجزة عن الأدب الإِسلامي

يبتدىء هذا العصر ببعثة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وصحبه) ودعوته بمكة قومه من قريش والعرب عامة إلى الإسلام في سنة (٦١٠م) ويمتد ليشمل حياة الرسول في مكة والمدينة ، ثم عهد الخلفاء الراشدين من بعده ، حتى قيام الدولة الأموية في سنة (٤١ هـ) .

ويسمى الشعراء الذين عاشوا في هذا العصر وأدركوا عصر ما قبل الإِسلام بالمخضرمين.

وقد ازدهر فن الكلام في هذا العصر ، وصار الأدب يمثل روح الإِسلام ، ويعكس مدى تأثر الأدباء والشعراء بأسلوب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وبلاغتهما ولذلك تغير مجرى الحياة الأدبية عند العرب تغيراً واضحاً ، وقد تجلى هذا التغير في الشعر والنثر من حيث السمات الفنية أو الموضوعات والاتجاهات .

١ – الشعر

عندما جاء الإِسلام انقسم الشعراء إزاءه إلى فريقين ، فريق آمن به وأيّده ودعا إليه في شعره ، وفريق وقف ضده لأسباب اقتصادية واجتماعية ودينية ، فشهر سلاحه الشعري لمحاربته والتأليب عليه .

وقد كان يمثل الاتجاه الأول ثلاثة شعراء من الأنصار ، هم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، ويمثل الاتجاه الثاني معظم شعراء قريش ، مثل عبد الله بن الزِّبعرى وأبي سفيان بن الحارث وهبيرة بن أبي وهب ، ويؤازرهم في هذا الموقف شعراء اليهود ، الذين نكثوا عهدهم لرسول الله بالموادعة وحسن الجوار ، مثل كعب بن الأشرف والربيع بن أبي الحقيق ومَرْحب اليهودي ، وشعراء القبائل العربية مثل أمية بن أبي الصلت الثقفي .

كان حسان بن ثابت وكعب بن مالك يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم ، بالوقائع والأيام والمآثر والأنساب ، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر وعبادة الأوثان ، فكان أشدَّ القول على المشركين قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قولُ ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الدين كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة، لتغير المفاهيم وتبدل المثل لديهم .

واحتدم الصراع الكلامي بين هذين الاتجاهين ، وحين تم النصر للإسلام انحاز معظم شعراء قريش والقبائل إلى المعسكر الإسلامي ، وانضموا إلى شعراء الإسلام، يدعون له ويناضلون خصومه .

وكان للشواعر من النساء أيضاً دور كبير في هذه المعارك الكلامية ، فشاركن فيها بالبكاء على القتلى ، وبالتحريض على الانتقام ، وبإظهار التشفي بقتلى الاعداء، فمن الشواعر المسلمات ميمونة بنت عبد الله وصفية بنت عبد المطلب ، ومن شواعر قريش هند بنت عتبة وقتيلة بنت الحارث .

وربما ظهر بعض اللين والضعف على قسم من الشعر الإسلامي ، لانصراف بعض الشعراء الكبار عنه ، مثل لبيد بن ربيعة والنابغة الجعدي ، ولتضييق التعاليم الدينية لبعض أغراضه القديمة وأساليبه ، ولأن الإسلام أبطل بعضاً من البواعث التي كانت تهيج الشعراء وتلهب مشاعرهم . لكنه أوجد أغراضاً وأساليب جديدة ، وخلق بواعث لا وجود لها قبل الإسلام.

اما موقف الاسلام من الشعر فقد كان واضحاً في قوله تعالى :

«والشُّعراءُ يتّبِعهُمُ الغاوُونَ ، ألمْ ترَ أنَّهُم في كلِّ وادٍ يهيمون ، وأنَّهم يقولونَ ما لا يفعلونَ ، إلا الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ وَذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدِ ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا ايَّ منقلب ينقلبون » [١]

إن القرآن الكريم لم يحارب الشعر لذاته في هذه الأحكام ، وإنّما حارب المنهج الذي سار عليه بعض الشعراء ، منهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابط لها ، ومنهج الأحلام المهوّمة التي تشغل أصحابها عن العمل لتحقيقها . وميّز القرآن الكريم بين فريقين من الشعراء ، فريق استغل فنه فيما ينافي الدين وآدابه ، فهو الفريق المعيب الذي حاربه القرآن الكريم ، وفريق اتجه بشعره إلى العمل الخير ، والفكرة الجميلة ، وإلى نصرة الحق حيث وُجِد ، فهو الفريق الذي استثناه من الوصف العام ، وأيّده بكلِّ ما يمكن من قوة مادية ومعنوية .

(١) سورة الشعراء ، الآية ٢٢٤ - ٢٢٧ .

فالقضية إذن فيما يتناول الشعراء من المعاني والأغراض ، وليست في الشعر لذاته لأنه سلاح ذو حدّين .

لذلك قال الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) : (إنّما الشعر كلام مؤلف ، فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق فلا خير فيه) .

وقال الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) : (إنّما الشعر كلام ، فمن الكلام خبيث وطيّب) .

أما الحديث الذي تداوله الرواة على أنه تعبير عن موقف الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) المعادي للشعر ونصه (لئن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً ودماً خيرٌ من أن يمتلىء شعراً) فإنّهم لم يرووه كاملاً ، إذ تكملته الصحيحة (هُجيتُ به) وفي هذا الاستدراك يتّضح جلياً موقف الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) من الشعر ، فهو لم ينه عنه . بل نهى عن لون معين منه ، وعن موضوعات خاصة ، تقوم على هجائه الذي يعني هجاء الدعوة ومحاربة الدين .

ومن الطبيعي أن ينصرف الشعراء عن شعر العصبية والمنافرات والهجاء الذي يؤذي النفوس ، ويثير الضغائن بين أبناء الأمة الواحدة ، وعن الشعر الماجن الذي لا يتفق والفضائل ، ويعين على نشر الرذائل فكُلّ هذه الألوان من الشعر تخالف المبادىء التي قرّر الإسلام أن تكون أسس مجتمعه الجديد .

أما فيما عدا ذلك فإن الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) أقرَ قول الشعر ، وطلب من الشعراء أن يردوا على قريش وينصروه بألسنتهم كما نصروه بأسلحتهم .

و أثنى على شعراء الدعوة ، وقدّر دورهم في المعركة فقال : (هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل) .

وقال لحسان : (لشعرك أجزلُ عند قريش من سبعين رجلاً مقاتلاً ، ولشعر كعب بن مالك أشد على قريش من رشق السهام) .

كما أدرك أثر الشعر في نفس العربي ، ، فحثّ بعضهم على هجاء الكافرين ليشفي صدور المسلمين ، ولئلا يبقى ذلك في قلوبهم فقال بعد هزيمة المشركين يوم الأحزاب : (إن المشركين لن يغزوكم بعد اليوم ، ولكنكم تغزونهم ، وتسمعون منهم أذى ، ويهجونكم فمن يحمي أعراض المسلمين ؟) فأجابه شعراء الإسلام الثلاثة وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة لهذهِ الدعوة . ويروى أن النبي (صلى الله عليه وآله وصحبه) بنى لحسان بن ثابت في المسجد منبراً ينشد عليه الشعر .

وعندما تولى الخلفاء الراشدون الأمر من بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) ساروا على نهجه في موقفهم من الشعر والشعراء ، لذلك نظم الشعراء في عصر الراشدين أكثر من قصيدة شعرية رائعة خلدوا فيها انتصارات العرب والمسلمين . وبطولاتهم في الجهاد في سبيل الله ، فهذا النابغة الجعدي يخاطب امرأته حين كانت تلومه على كثرة خروجه للجهاد وغيابه في حروب تحرير بلاد فارس ، فيقول لها :

يـــا ابنة عمي كتابُ الله أخرجني ... طوعـــاَ وهـــل أمنعنّ الله مــــا فعلا
فـــإنْ رجعتُ فربُّ الناسِ يُرجعني ... وإن لـحقتُ بـــربــي فــــابتغي بَـــدلاً
مـــا كنتُ أعرجَ أو أعمى ليعذرني ... أو ضارعاً من ضنى لم يستطع حِوَلا [1]

---

(١) ضارعاً : نحيلاً ، ضنى : مرض ، حولا : تحويلا من مكان إلى آخر .

كما برز عدد آخر من الشعراء ولجوا بأشعارهم ميادين جديدة استحدثتها حروب التحرير من الشرك وعبادة الأوثان .

وقد تركت الأحداث التأريخية الكبرى في تلك الفترة أثراً واضحاً في الشعر والشعراء مثل فتح مكة ، وعام الوفود ووفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) وحروب الردة واستشهاد بعض الخلفاء الراشدين.

ويمكن إيجاز موضوعات الشعر الإسلامي بالدعوة إلى الإسلام ، وهجاء أعداء الدعوة ورثاء شهداء الإسلام ، أو من قُتل ظلماً من الخلفاء والصحابة والفخر بالدين الجديد وبالانتصارات على الخصوم ، وهو ما يسمى بشعر الحماسة لصلته الوثيقة بحروب الإسلام التحريرية ، والمدح لمن تجسدت فيه مبادىء الدين الجديد ولا يخلو الشعر من شذرات في الحكمة والوعظ والزهد .

أما خصائص الشعر في هذه الفترة فيمكن أن نلمسها في تأثره بمعاني الإسلام وأفكاره النبيلة ، والعناية بجمال السبك ورقة الكلام ، وانتقاء الألفاظ السهلة الواضحة ، والاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

حسّان بن ثابت

هو حسّان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصاري ، من بني النجار من قبيلة الخزرج يكنى أبا الوليد وأبا عبد الرحمن وأبا الحسام . شاعر رسول الله المعروف ، أسلم قُبيل الهجرة ، وذاد عن الإسلام بشعره مع صاحبيه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة .

وكان حسان أشعر الثلاثة ، وهو كثير الشعر جيّده . وقد عُمِّر حسان طويلاً إذ عاش مئة وعشرين سنة ، ستين قبل الإسلام وستين في الإسلام كما ذكرته كتب التأريخ . وكان الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) يسمع من حسَّان ، ويقول له : « ... أجب عني ، اللهمَّ أيّده بروح القدس » . أي جبريل . وله شعر كثير مجموع في ديوان طبع مشروحاً مرات عديدة .

(للدرس والحفظ : ٨ أبيات)

قال يرد على الشاعر الزبرقان بن بدر :

إنَّ الذَّوائبَ من فِهْرٍ وإخوتِهِمْ
قَد بَيَّنوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَعُ (١)

يرضى بها كلُّ مَنْ كانَتْ سَريرتُه
تقوى الإله وبالأمرِ الذي شَرعوا (٢)

قَومٌ إذا حارَبوا ضَرُّوا عَدوَّهُم
أو حاولُوا النَّفع في أشياعِهم نَفعوا (٣)

سجيَّةٌ تِلك منهم غيرُ مُحدثةٍ

إنِ الخلائِقَ فاعلَمْ شرُّها البِدَعُ (٤)

لا يَرقعُ الناسُ ما أوهَت أكفُّهمُ

عندَ الدِّفاع ولا يُوهُون ما رقعوا (٥)

إن كانَ في النَّاس سَبَّاقُون قَبلَهُمُ

فكُلُّ سبقٍ لأدنى سَبقهم تَبَعُ (٦)

ولا يضنُّون عن جَار بِفَضلِهم

ولا يُدَنِّسُهُم في مَطمعٍ طَبَعُ (٧)

لا يجهَلُونَ وإنْ حاولتَ جَهلهم

في فضلِ أحلامهم عَن ذاكَ مُتَّسَعُ (٨)

أعِفَّةٌ ذُكِرتْ في الوحي عِفَّتُهُم

لا يطمعون ولا يُرديهمُ الطَّمعُ (٩)

كم من مُوالٍ لهمْ نالُوا كرامتهُ

ومن عدوٍّ عليهمْ جاهد جَدعُوا (١٠)

أعطوا نبيَّ الهدى والبِّر طاعتَهمْ

فما ونى نصرُهم عنهُ وما نزعُوا (١١)

إن قال سِيروا أَجدُّوا السَّيرَ جُهدَهمُ

أو قال : عُوجُوا عَلَينا ساعةً رَبعُوا (١٢)

(١) الذوائب : جمع ذؤابة ، وذؤابة كل شيء : أعلاه . والمراد به هنا السادة .

- فِهر : الجد الأعلى لقريش .

- سُنّة : طريقة ومنهج .

(٢) سريرته : ما يضمرهُ من أفكار ومقاصد .

- شرعوا : رسموا واختطوا .

(٣) الأشياع : الأتباع والأنصار .

(٤) السَّجِية : الغريزة .

- الخلائق : واحدها الخليقة ، وهي الطبيعة .

- البِدع : واحدها البدعة ، وهي المستحدثة من الأخلاق .

(٥) أَوهت : مزَّقت وشقَّقت .

(٦) تبع : تابع .

(٧) يضنّون : يبخلون .

- طَبَع : عيب ووسخ .

(٨) أحلامهم : عقولهم .

(٩) الوحي : القرآن .

- لا يطمعون : لا يعملون ما يعيبهم ويدنسهم .

- يرديهم : يؤدي بهم إلى الهلاك .

(١٠) جاهِدٌ : مجتهد في عداوتهِ .

- جدَعوا . قطعوا أنفه ، يريد أذلُّوه .

(١١) ونى : ضعف .

- نزعوا : انصرفوا عن طاعته .

(١٢) عوجوا : ميلوا إلينا .

- ربعوا : وقفوا وأقاموا .

التعليق النقدي

وَفَدَ على رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) وَفْدُ بني تميم عام الوفود بعد فتح مكة ، وقدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر لينشد قصيدة يفخر فيها بقومه ، وكان حسان غائباً ، فبعث إليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) .

قال حسان : فلما جاءني رسوله فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم خرجتُ إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) فلما انتهيت إليه ، وقام شاعر القوم ، فقال ما قال عرضتُ في قوله ، وقلت على نحو مما قال ، فلما فرغ الزبرقان من قوله ، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) لحسّان : (قم ياحسان فأجب الرجل فيما قال) . فقال حسّان هذه القصيدة،فلما فرغ حسّان من قوله ، وخطيب المسلمين الذي ردّ على قوله خطيبهم أيضاً . قال رئيس وفد تميم ، وأبي ، إن هذا الرجل لَمُأتّيَ له أي (لموفَق) ، لخطيبهُ أخطب من خطيبنا ولَشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ، فلما فرغ القوم أسلموا .

وكان فخر حسّان خليطاً بين المعاني القديمة التي أقرها الإسلام مما كان يفخر به العربي آنذاك . والمعاني الجديدة التي جاء بها الإسلام فقال : « إن السادة من قريش المهاجرين وإخوتهم الأنصار ، قد رسموا للناس طريقة ومنهجاً ، يسيرون عليه ويتبعونه ، وهو منهج الإسلام الذي يرضى به ، ويؤمن بشريعته كلّ مَنْ أسَرَّ في قلبه وفكره تقوى الإله والخوف منه » .

ومن صفات هؤلاء المسلمين أنهم يضّرون أعداءهم وينفعون أتباعهم في الحروب فهم أشداء على الكفار ، رحماء بينهم كما وصفهم القرآن الكريم ، وليست هذه الصفة مما اكتسبوه حديثاً بل هي صفة أصيلة فيهم ، لأن شرّ الأخلاق المستحدث الذي لا يملكه الإنسان أصلاً فقد تكون تلك الأخلاق وليدة الهوى والغرض .

وإذا وُجد في غير المسلمين أحد يستطيع أن يفوز في السباق ، فان هذا الفائز يكون بعد آخر فائز من المسلمين وليس من صفات المسلمين البخل على الحليف والصديق ، ولا ينالهم العيب والشَّين من شيء يطمعون فيه ، لأنهم بعيدون عن الطمع . إن عقولهم أسمى من أن تسفّ وتؤدي إلى الجهل ، وهو الحمق وسرعة الغضب ، لسعة عقولهم واتزانهم فلا يستطيع أحد ، مهما حاول ، أنْ يحملهم على شيء ليس من أخلاقهم وهم أعفَّةٌ ، يكفون أنفسهم عما يعيب الإنسان ، وقد ذكر القرآن الكريم عفتهم حين قال : « يحسَبُهُم الجاهِلُ أغنياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ » [1] ولا يفعلون ما يُدَنِّسهُم ولا يطمعون طمعاً

---

(١) البقرة آية ٢٧٣ .

يؤدي بهم إلى الهلاك ، يحفظون لأصدقائهم كرامتهم ، ويذلون أعداءهم المعنين في عداوتهم. وهم مذعنون لأمر قائدهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) مضحّون في طاعته والاستجابة له ولم ينصرفوا عن ذلك مطلقاً ، ومن مظاهر تلك الطاعة ومظاهر الاستجابة السريعة أنّهم متى طلب منهم الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) السَّير بذلوا كُلَّ طاقتهم ومتى طلب منهم الميل إلى مكان ما ، سارعوا وأقاموا في ذلك المكان .

كُلُّ ذلك كناية عن تمام الخضوع وكمال الاستسلام لقيادة الرسول العظيم (صلى الله عليه وآله وصحبه) .

كعب بن زهير

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى الشاعر المشهور وكان لكعب أخ شقيق اسمهُ بُجَير.

لّما ظهر الإِسلام تأخر بُجير وكعب عن الدخول فيه ولكن لّما زاد انتشاره أَسلم بُجير قبيل سنة (٧ هـ ٦٢٨م) ثم شهد فتح مكة، أما كعب فإِنهُ بقي على الشرك فعزم في سنة (٩ هـ ٦٣٠ م) على أن يستأمن إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) فجاء سرّاً إلى المدينة واستشفع بأبي بكر ثم سار على اثره حتى دخل المسجد فلما صُلّيت الصبح أَوصلهُ أبو بكر إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) فقال كعب للرسول: (يارسول الله رجلٌ يبايعك على الإِسلام). وبسط يده وحسر عن وجهه وقال: (بأبي وأمي أنت يارسول الله أنا كعب بن زهير). فأمنه الرسول فأنشده كعب قصيدة كان نظمها في مدحه، التي مطلعها:

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ ... متيّمٌ إثرها لـم يفدَ مكبـولُ

وكانت وفاته سنة ٢٦ هـ / ٦٤٥ م.

كان كعب بن زهير شاعراً فحلاً مُكثراً مجيداً، منهم من قرنه وجعله مع لبيد والنابغة في طبقة واحدة، وقال خلف الأحمر: (لولا أبيات لزهير أَكبرَها الناس لقلتُ إنّ كعباً أشعر منه).

أما أغراض شعره فيدور معظمها على المدح والهجاء والفخر والحماسة ولم يكن كعب يرضى عن كلِّ ما قال من الشعر. ولا غروَ فهو على مذهب أبيه من التنقيح والتشذيب في صناعة الشعر.

قال كعب بن زهير مادحاً :

(للدرس والحفظ : ٨ أبيات)

فقلتُ خلوّا سبيلي لا أبالكم
فكلُّ ما قدَّرَ الرَحمنُ مفعولُ

كلُّ ابنِ أُنثى وإنْ طالت سلامتُه
يوماً على آلةٍ حدباءَ محمولُ (١)

نُبِّئتُ أنَّ رسولَ اللهِ أوعدني
والعفو عند رسول اللّٰه مأمُولُ (٢)

مهلاً هداك الذي أَعطاك نافلة الـ
قرآنِ فيها مواعيظٌ وتفصيلُ

لاتأخُذنِّي بأقوال الوشاة ولم
أُذنب وَلو كَثُرَت فيَّ الاقاويلُ

لقد أَقومُ مقاماً لو يقومُ به
أرى وأسمعُ ما لو يسمعُ الفيلُ

لظلَّ يُرعَدُ إلا أنْ يكون لَه
من النبيِّ بإِذن اللّٰه تنويلُ (٣)

إنّ الرسولَ لنورٌ يُستضاءُ به
مُهنَّدٌ من سيوف اللّٰه مسلولُ

في عصبةٍ من قريشٍ قال قائلهم
ببطنِ مكةَ لَمَّا أسلموا زُولوا (٤)

زالوا فما زال أنكاسٌ و لا كُشُفُ
عند اللقاء ولا ميلٌ معازيلُ (٥)

شُمُّ العـرانين أَبطـالٌ لبُوسـهـــم
من نسجِ داودَ في الهيجا سرابيلُ (٦)
لا يفرحونَ إذا نـالـت رمـاحُهــم
قوماً وليســوا مجازيعــاً إذا نِيلوا
لا يَوقعُ الطعــنُ إلا في نحورِهــم
ومالهم عنْ حيــاضِ الموت تهليلُ (٧)

اللغة

١ – حدباء : معوَجّة . يريد هنا (النعش) .

٢ – أوعدني : هددني بالقتل .

٣– يُرعَدُ : (مبني للمجهول) يرتجف .

– تنويل : العطاء ، أي : العفو .

٤ – زولوا : هاجروا .

٥ – أنكاس : ضعفاء .

– كُشُفُ : الذين ينهزمون عند أول اللقاء في الحرب .

– ميل : جمع (أميل) : الذي لا يثبت على ظهر جواده ، إشارة إلى الهرب .

– معازيل : لا سلاح لهم .

٦ – شمّ العرانين : كناية عن الشرف .

– من نسج داود : يلبسون الدروع المشهورة من صنع داود (عليه السلام) .

– الهيجا : الحرب .

– سرابيل : طويلة .

٧ – تهليل : من هلل من عدوّه : جَبُن .

هذه الأبيات مُختارة من قصيدة كعب المشهورة (بانت سعاد) أو (البردة) .

وبعد مقدمتها التي كانت غزلاً تقليدياً - جرياً على عادة الشعراء - انتقل إلى الموضوع الأساس وهو مدح رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) رجاءً لعفوه .

يقول الشاعر : لقد حذّرهُ الكثيرون من الموت الذي ينتظره إن هو عزم لقاء النبي (صلى الله عليه وآله وصحبه)، ولكنّه اندفع واثقاً بعفو نبي الرحمة والهدى (صلى الله عليه وآله وصحبه)، وإنّ ما قدّره الله سبحانه لا رادَّ له.

وكُلُّ انسان صائر إلى الموت ، وإن الوعيد والتهديد من عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) بلغني ولكني آمل عفوه ، ويخاطب كعب رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) خطاباً مباشراً ، ويرجوه التمهل في الحكم عليه ، مُتوسلاً إلى ذلك بما لرسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) من مكانة عند الله ، وبحقِّ هذه المكانة الرفيعة التي منها نزول القرآن الكريم عليه ، هذا الكتاب الذي فُصّل فيه كُلّ ما يهمّ الناس .

ويرجو كعب ألا يحاسب بأقوال الكاذبين الذين أكثروا من الكلام فيه وهو لا ذنب له.

ويظهر كعب جلالة الموقف وهيبته ، فلو أن الفيل - هذا الحيوان الضخم - كان مقام كعب لظل يرتجفُ خوفاً وهلعاً وهيبة من الرسول الأعظم ، إن لم يكن هناك أمل بالعفو.

وفي تصوير بديع جمعَ فيه كعب صورتين رائعتين للرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) فوصفه معنوياً بالنور هدايةً ، وبالسيف قوةً وعزاً في الله ، وهو قَرَشيٌّ نسباً وهذا النسب شرف لكُلِّ عربي ، ومعه الصحابة في مكة مُطيعون لأمر الله ورسوله ، وحين أذِنَ الله بالهجرة كان المؤمنون مُلبّين طاعة لله ولرسوله ، وهجرتهم هذه لا تعني ضعفهم ، ولا تعني أنهم هاربون خوفاً أو لأنهم لا يُحسنون صنعة الحَرب ، فهم الشرفاء الكرام الأبطال ، الذين يلبسون للحرب لبوسها ، فقد تحصّنوا بالدروع المشهورة المنسوبة إلى داود (عليه السلام) .

لقد ألف المسلمون الانتصار ، فإذا ما كسبوا معركةً فلا يأخذهم الزهو والغرور ، وإذا ما خسروا معركةً لا يجزعون ، والجراح لا تكون إلاّ في صدورهم ؛ كناية عن شجاعتهم وإقدامهم ، فهم لا يفرّون من المعركة ، ولا يجبنون عند لقاء عدوِّهم .

إن القصيدة من روائع الشعر العربي وأشهره - وقد نهج نهجها الكثيرون - وهي صادقة المشاعر ، قوية السبك ، جميلة التعابير ، وقد توّسل الشاعر - بما يمتلكه من شاعرية - إلى إيصال فكرته بالصور المعنوية والصورالمادية ، مثلاً : وصفه للرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) بالنور وبالسيف ، وتشبيهه لنفسه بالفيل المرتجف، وكناية عن شرف المهاجرين بـ (شُمُّ الأنوف) ، وعن الشجاعة بـ (ليسُوا أنكاساً) . ولفكرة القصيدة ، وللخيال الواسع الذي اتسع في صورها ، ولحسنِ التصوير والتجسيم، ولصدق الأحاسيس وبكلِّ هذا وغيره امتلكت القصيدة خلودها .

أبو ذؤيب الهذلي

هو خويلد بن محرث ، من الشعراء المخضرمين (الذين عاشوا قبل الإِسلام، وأدركوا الإِسلام) وكان شاعراً مشهوراً ذاع صيته في العهد الإِسلامي ، وقد مات وهو عائد من الجهاد في عصر الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) بطريق مصر . وكان له خمسة أبناء بلغوا سنَّ الرجولة ومنحوه العزة والمنعة ببأسهم وشجاعتهم ، هلكوا جميعاً في عام واحد بمرض الطاعون فبكاهم في قصيدته هذه ، قائلاً :

(للدرس والحفظ : ٨ أبيات)

أمِـن الـمنـون وريبِـــــــه تتوجعُ	والدهرُ ليس بِمعتبٍ مَن يَجـزعُ[١]
قالت أميمةُ ما لـــجسمكَ شاحبـاً	منذُ ابتُذلتَ ومثل مالك ينفـعُ[٢]
أم ما لـجـنبكَ لا يُلائمُ مضجعِــــاً	إلا أُقضَّ عليك ذاك الـمضجعُ[٣]
فــأجبتُها : أمّـــا لـجسمـي أنـهُ	أودى بنيّ مِن البلادِ فودعـــوا[٤]
أودى بنـيَّ وأعقـبونـي غُصَّــــةً	بعـد الـرُّقـادِ وعَبـرةً لا تقلـعُ
ولقـد حرصتُ بأن أدافـع عنهـُم	فإِذا الـمنيـةُ أقبلـت لا تُـدفعُ[٥]
وإذا الـمـنيـة أنشبـت أظفـارهـــا	ألفيتَ كـلَّ تـميمـةٍ لا تنفــعُ[٦]
وتـجلدي للشـــامتين أريهـــــمُ	أنـي لِرَيبِ الدهرِ لا أتضَعضـعُ[٧]
والنفــسُ راغبـــــةٌ إذا رغَّبتهـــا	واذا تُـردُّ إلــى قـليــل تقنـعُ
فـلئـن بهم فجعَ الزمـــانُ وريبُـه	إنــي بــأهـلِ مودتـي لـمُـفجَّعُ

اللغة

١ – المنون : الدهر .

– ريبه : صروف الدهر وأحداثه .

– معتب : مُنصف .

٢ – ابتذلت : امتُهنتَ .

٣ – أقض عليك : آلمك وأتعبك – والقضض : الحصى الصغار المتكسرة .

٤ – أودى : أهلك .

٥ – المنية : الموت .

٦ – تميمة : ما يعلق من حرز ونحوه . اعتقاداً بأنه يدفع الأذى .

٧ – أتضعضع : أضعف – أتزحزح .

التعليق النقدي

إنَّ الرثاء غرض قديم من أغراض الشعر العربي ، عرفه الشعراء لمواجهة حقيقة الموت وأبو ذؤيب الهذلي في قصيدته هذه يرثي أولاده بعد أن فقدهم في عام واحد واستهلها باستفهام ينكر فيه على نفسه أن يتوجع من الدهر وحوادثه ، عبر حوارية مع امرأة تسأله عن علة شحوب وجهه ، وأرقه ، فيجيبها أنها موت بنيه وما أعقب ذلك من غصة وبكاء ساعة يرقد الناس .. وفي أبياته ألم محض حتى إن بعضها صارت سائرة بين الناس لأنها تذكر الحقيقة الفاجعة في هذه الحياة (الموت) ومشاعر الناس إزاءها ...

وهي تماضر بنت عمرو بن الشّريد من بني سليم ، والخنساء لقب لها وكان بنو سُليم يسكنون ما بين شمالي نجد والحجاز وقد تزوجت رواحة بن عبد العُزّى السُّلمي فولدت له عبد الله ثم خلف عليها مِرداس بن أبي عامر السلمي فولدت له زيداً ومعاوية وَعَمراً .

قُتل أخواها معاوية وصخر قبل الإسلام ، كان معاوية شقيقها وكان صخر أخاها لأبيها طعنهُ أبو ثور الأسدي فاحتمل الطعنة عاماً ثم توفي متأثراً بها فحزنت عليهما حُزناً شديداً وبكتهما دماً ورثتهما بأروع القصائد حتى عميت .

ولما جاء الإسلام وفدت الخنساء على الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) مع قومها وأنشدته من شعرها . وكان للخنساء أربعة بنين فلما سار المسلمون لفتح العراق جمعت بنيها الأربعة وحضّتهُم على القتال ونصرة الإسلام فخاضوا معركة القادسية واستشهدوا جميعاً فلمّا جاءها النعي بمصرعهم لم تزد على أن قالت :« الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته » .

تُعَدُّ الخنساء من أعظم شواعر العرب ، وشعرها مقطعات كُلّه ، وهو فصيح اللفظ رقيق السبك رائق الديباجة ، وقد غلب على شعرها الفخر قليلاً والرثاء كثيراً لما رأينا من فجيعتها بأخويها خاصة ، ورثاؤها واضح المعاني رقيق الألفاظ صادق العاطفة بدوي المذهب لكثرةِ ما فيه من التلهف والمبالغة في ذكر ممات أخويها .

قالت ترثي أخاها صخراً :

(للدرس والحفظ : ٨ أبيات)

يؤرقني التذكــرُ حــينَ أُمســـي
فيردعني عن الأحزانِ نُكسي [١]

على صخرٍ وأيُّ فتّى كصخـــر
ليـــوم كريهةٍ وطعــانِ خَلسِ [٢]

ألا يا صخـــرُ لا أنســاكَ حتّـــى
أفارقَ مهجتــي ويُشقَّ رَمسِــي [٣]

يُذكرني طلوعُ الشَّمس صخراً
وأذكُرُهُ بكُـلِّ غـــروبِ شمـــسِ

فلولا كثــرةُ الباكــين حولـــي
علــى إخـوانهم لقتلـتُ نفســي

ولكـــن لا أزالُ أرى عَجـــولاً
وباكيـــةً تنـوح ليومِ نَحـــسِ

هُما كلتاهما تَبكــي أخاهـــا
عشيـــة رُزئه أو غِـــبَّ أمـــسِ

وما يبكـــين مِثــل أَخــي ولكن
أُعزِّي الـنفسَ عـــنهُ بالتأسِّـــي

فقد ودّعتُ يوَم فراقِ صخـــرٍ
أبي حسّــــانَ لــذَّاتي وأُنـــسي

فيالهفـــي عليه ولهــفَ أمّـــي
أيصبحُ في الضريح وفيه يُـمسي

اللغة

١ – يؤرقني : من الأرق : وهو القلق وذهاب النوم .

٢ – خَلس الشيء : إذا استلبه .

٣ – الرمس : القبر .

التعليق النقدي

حزنت الخنساء على أخويها – وبخاصة صخراً – حزناً خلّده شعرُها ، وأنها اشتهرت بالمقطّعات ، وهذه إحدى تلك القصائد التي تفصح عن عميق حزنها مُعّينةً زمن اشتداد حزنها بـ (المساء) حيث ينفرد الإنسان بنفسه .

إن حزنها على صخر لكبير ، لأنه رجل لا مثيل له – عندها – وأنّها لا تنساه حتى تفارق الحياة ، فهي تذكره عند طلوع كل صبح ، وعند كُلّ مساء ، وقد تتأسى الشاعرة بما تراه من فقد للناس فتعتبر وتتصبّر ، ولولا كثرة ذلك لعمدت إلى قتل نفسها حزناً على صخر ، ولكنها تتسلى حيث ترى الكثيرين يتوجعون ويبكون بكاءها .

وتؤكد الشاعرة (ثانيةً) أنّ أخاها فاق رجال عصره ، وكان فقده أليماً لها ، فودّعت بتوديعه كُلّ مَلاذ الحياة ، وهي لا تكاد تصدق أنه استقر في القبر مسكناً .

لقد جاءت الأبيات وهي تُفصح عن مشاعر وأحاسيس صادقة للخنساء في رثائها صخراً ، بألفاظ مفهومة وبأسلوب وتراكيب سهلة . وهذه السمات هي سمات غرض الرثاء الذي اشتهرت به الخنساء أو كادت تختص به .

٢- النثـر

كان الشعر في العصر السابق للدعوة الإسلامية اللسان المعبر عن الحياة العربية في كُلّ المجالات . وعندما جاء الإسلام ازدهر فن النثر إلى جانب الشعر . ونهض بأعباء الفكر الجديد ، يُبشِّر به ، ويدعو إليه ، ويحاجج خصومه ويجادلهم .

فدعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) إلى الإسلام بالنثر ، وبه ثقّف أتباعه وبصّرهم بمبادئ الدعوة وناظر خصومهم وأفحمهم وانتصر عليهم . ثم اتخذ منه وسيلة لإيصال الدعوة إلى خارج مكة ، بالكتابة حيناً ، وبالخطابة أحياناً أخرى ، وبعد قيام الدولة الإسلامية استخدم الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) النثر في كتبه وعهوده ووصاياه .

فكان النثر وسيلة له وللخلفاء والأمراء والولاة والقادة ، ومعروف أن أعلى درجات البلاغة في نثر صدر الإسلام كان خاصاً بالقرآن الكريم ثم الحديث النبوي الشريف . وإنَّ جميع الكتَّاب والخطباء تَرَسَّمَ طريقهما في البلاغة والفصاحة وخير ما يمثل نثر هذه الفترة أدب الخطابة ، وأدب الرسائل ، فكان ازدهارهما كبيراً لما كانا يؤديان من مهمات متعددة ومتنوعة في ظل الدولة العربية الإسلامية الجديدة .

لم تكن عناية العربي قبل الإسلام بالخطابة كبيرة ، لأنه كان يعتمد الشعر للتعبير عمّا يجول في خاطره ، ويدور في صدره ، فلم يصل إلينا منها إلا نماذج محدودة في عددها وموضوعاتها وآفاقها .

وعندما جاء الإسلام تهيأ في ظله ما لم يتهيأ لأي فن من الفنون الأدبية الأخرى للظروف التي طرأت على الحياة العربية من حيث اعتمادها المحاجة والمجادلة والشرح والإقناع والتبصير .

كانت تسير على نهج القرآن الكريم في تثبيت العقيدة الدينية ومناقشة أفكار المشركين، وكانت وسيلة رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) وعُدته وهو يعرض نفسه على القبائل والأحياء العربية في مواسم الحج والأسواق والمناسبات التي تعقد في مكة وحولها.

ومن البديهي أن تُرصَّع كلماته بآي الذكر الحكيم ، وأن يتوسع في كُلِّ تلك الآيات سائراً على نهج القرآن الكريم في الدعوة إلى الدين الجديد ، بعد أن نزل قوله تعالى :

(وأنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقرَبِينَ)

(الشعراء / ٢١٤)

حتى صدع رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) لهذا الأمر ، فارتقى جبل الصفا ثم نادى : يا صباحاه [1] فاجتمع الناس عليه ، فهدر يخطب فيهم :

(يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني كعب ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح الجبل تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مُصدِّقيَّ ؟

قالوا : نعم . ما جرّبنا عليك كذباً .

فقال : (إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) .

وما يلبث أن ينتقل إلى يثرب حتى تتطور تلك الخطابة من حيث أغراضها ومعانيها بما يناسب حياة المسلمين الجديدة ، فصارت وسيلة للتشريع وإرساء أسس الدولة الجديدة وسلاحاً ماضياً لشحذ همم المجاهدين . وأضحت فرضاً مكتوباً على المسلمين في صلاة الجمعة والعيدين ، فهي تسبق الصلاة يوم الجمعة ، وتعقبها في العيدين . ولهذه الخطب سنن وتقاليد بيّنتها كتب الحديث النبوي ، واحتفظ بها الناس إلى هذه الأيام .

ويتصدر خطباء هذا العصر الرسولُ العربي (صلى الله عليه وآله وصحبه) الذي كان يخطب على هدي القرآن الكريم بعد ان تشرّب بروحه واستوعب معانيه ، وقد أوتي من الفصاحة والبلاغة واللسن ما لم يؤت غيره من الناطقين بها .

فكان يخطب في المسلمين واعظاً أو مشرعاً وقد يجمع بين الوعظ والتشريع بأسلوب رائع ، ونسج بليغ ، فقد أوُتي جوامع الكلم .

---

(١) : ياصباحاه : عبارة تردد عند وقوع غارة أو أمر جسيم .

وعرف إلى جانب رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) كثير من الخطباء في تلك المرحلة ، كالخلفاء الراشدين الذين كانوا في الذروة من الفصاحة والتمكن من ناصية القول بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) ، فقد سرت في أساليبهم روح القرآن الكريم وبلاغته ، وتسرّب إلى قلوبهم تأثير حديث رسول الله ، فخالط ذلك كلماتهم . واستمدوا منه خطبهم . كما عرف هذا العصر خطباء آخرين ، ومنهم ثابت بن قيس بن الشماس الذي كان يسمى (خطيب النبي) وسعد بن الربيع وأبو عبيدة الجراح وخالد بن سعيد بن العاص .

وأسهمت المرأة العربية بدور فَاعل في خطب هذا العصر ، فبرزت خطيبات بارعات كأم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) والسيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) وأم الخير بنت الحريش .

وكان من خطباء المشركين عتبة بن ربيعة وضمضم بن عمرو الغفاري . وقد ضاعت أكثر خطب المشركين ، كما ضاعت أشعارهم التي قيلت في تلك المرحلة .

أما الأغراض التي تناولتها الخطابة في هذا العصر فهي الغرض الديني في الوعظ والإرشاد والدعوة إلى الإسلام ، وبيان الأحكام الدينية ، والغرض السياسي في شرح المسائل السياسية المتصلة بمنصب الخلافة والإمارة ، أو توضيح مناهج الدولة السياسية والعسكرية فيما يلقيه القادة على جيوشهم للحث على الجهاد وعند الالتقاء بالأعداء .

وربما تطرق بعض الخطباء إلى الأمور الثقافية والاجتماعية .

ويمكن أن نلخص الخصائص العامة التي كانت تميز الخطبة في صدر الإسلام بالآتي :

١ - شيوع الطابع الديني ، واستعانة الخطباء المسلمين بألفاظ القرآن الكريم وروحه ، حتى كانوا يعدون خلو الخطبة من القرآن الكريم ، ينزل بها عن الاجادة ويُقللُ قيمتها . قال بعض خطباء هذا العصر : خطبت خطبة ظننت أني لم أقصر فيها عن غاية ، ولم أدع لطاعن علة ، فمررت ببعض المجالس ، فسمعت شيخاً يقول : هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن الكريم ، وتُعرف الخطبة الخالية من القرآن بـ(الشوهاء) . وربما جعل بعض الخطباء خطبته كُلّها قرآناً ، كما فعل مصعب بن الزبير حين قدم إلى العراق .

٢- التخفف من السجع الذي كان يثقل خطب ما قبل الاسلام ، وبخاصة ما يُدعى بسجع الكهّان ، الذي يدعو إلى ضرب من معرفة الغيب والتنبؤ بالمستقبل بألفاظ غريبة غامضة ذات جرس وإيحاء .

٣ - اختفاء المفاخرات والمنافرات القديمة التي حاول الإسلام إماتتها بالدعوة إلى الوحدة .

٤ - وحدة الفكر والموضوع التي تفتقر إليها خطب ما قبل الاسلام .

٥ - الإيجاز مع البلاغة ، فقد أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) بتقصير خطب الجمعة وأوصى ابو بكر (رضي الله عنه) أحد قادته : إذا وعظت جندك فأوجز ، فإن كثير الكلام يُنسي بعضه بعضاً .

٦ - السلاسة والوضوح مع الجزالة .

٧ - قصر الفقرات ، وتناسق الفواصل .

٨ - أما بناء الخطبة الفني فيبدأ عادة بحمد الله وتمجيده فالصلاة على الرسول ، وقلّما نجد خطبة تخلو من هذه المقدمة ، حتى سميت الخطبة الخالية من هذه المقدمة بالبتراء وتقترن بكلمة (أما بعد) ثم ينتقل الخطيب إلى موضوع الخطبة ، ويختمها بالحمد والسلام .

من خُطبة حِجَّة الوداع *

(للدرس والحفظ : ٧ أسطر)

قال الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) :

(الحمد لله نحمدُه ، ونستعينُه ، ونستغفرُه ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيّئات أعمالنا ، مَن يهدِ اللهُ فلا مُضلَّ له ، ومن يضلل فلا هاديَ له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له ، وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله .

أوصيكم ، عباد الله ، بتقوى الله ، وأحُثكم على طاعته ، وأستفتحُ بالذي هُو خيرٌ .

أمّا بعد : أيُّها الناسُ ، اسمعوا مني أُبيّن لكُم ، فأنّي لا أّدري ، لعلِّي لا ألقاكُم بعدَ عامي هذا ، في موقفي هذا . أيها الناسُ إن دماءَكم وأموالَكم حرامٌ عليكم إلى أَن تلقوا ربَّكم ، كحرمةِ يومكُم هذا ، في شهرِكم هذا ، في بلدكم هذا . ألا هل بلَّغت ؟ اللهمَّ اشهد . فمن كانت عندهُ أمانةٌ فليؤدِّها إلى الذي ائتمنهُ عليها . وإن رِبا الجاهليَّةِ موضوعٌ وإن أوَّلَ رِباً أَبدأُ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب . وأنَّ دماءَ الجاهليَّةِ موضوعةٌ ، وإن أوَّلَ دمٍ نبدأُ به دمُ عامرِ بنِ رَبيعة بنِ الحارثِ بنِ عبدِ المطلب . غير السِّدانةِ والسِّقايةِ .

---

* السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ٦٠٣ - ٦٠٤

والعَمدُ قودٌ ، وشبهُ العَمدِ : ما قُتلَ بالعصا والحجرِ ، وفيه مئةُ بعيرٍ ، فمن زاد فهو من أهلِ الجاهليَّةِ .

أيُّها النَّاسُ ، إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضِكم هذه ، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مّما تحتقرون من أعمالكم ......

أيُّها النَّاسُ ، إنّما المؤمنون إخوة ، ولا يحلّ لامرئ مسلم مالُ أخيه إلا عن طيب نفس منه . ألا هل بلّغتُ ؟ اللّهُمَّ اشهد .

فلا ترجعُنَّ بعدي كُفّاراً يضرب بعضكم رقابَ بعض ، فاني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا بعده : كتاب اللّهِ . ألاهل بلّغت ؟ اللّهُمَّ اشهدّ .

أيّهُا النّاَسُ ، إنّ ربَكم واحدٌ ، وإن أباكم واحدٌ ، كلّكم لآدم ، وآدم مِن تراب إن أكرمكم عندَ اللّهِ أتقاكم ، وإنّ الله عليمٌ خبيرٌ . وليس لعربيّ على أعجميّ فضلٌ إلاّبالتقوى . ألا هل بلّغت ؟ اللّهُمَّ اشهد .

قالوا : نعم .

قال : فليبلّغ الشاهدُ الغائب .

اللغة

- موضوع : باطل ساقط .
- المآثر : ما يرثه الخلف من السَّلف من الأفعال والأقوال .
- السّدانة : خدمة الكعبة .
- السقاية : ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء .
- العمد : القتل عمداً .
- القَود : أي قِصَاص ، أي مَنْ قتل عمداً يُقتل .
- عن طيب نفس منه : بموافقته وبلا إكراه .

المعنى العام

ارتجل رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) هذه الخطبة في موسم الحج ، وهي آخر خطبة ودّع فيها المسلمين في السنة العاشرة ، لذلك سميت خطبة الوداع .

نهى الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) المسلمين في هذه الخطبة عن الظلم والعدوان والعادات والتقاليد القديمة المضّرّة ، صاغها بأسلوب سهل ومعانٍ واضحة ، محتذياً فيها أسلوب القرآن الكريم وطريقة تصويره.

فابتدأ بأسلوب تقريري ليُنبّه الأذهان على الشهر واليوم والبلد ، وهي ثلاثة معروفة شبه بها اثنين يُراد بيان تحريمهما في نفوس السامعين وهما دماء المسلمين وأموالهم.

وقد جعل الرسول العيش الصالح بسماع أقواله ، وامتثال أوامره والقبول بها فقال : (اسمعوا منّي أبينْ لكم) . أي أبين لكم سبل العيش الصالح الذي ينشده كُلّ إنسان . ولكي تسود المحبة ويعمّ الوفاق بين أفراد المجتمع نهاهم عن الظلم بكُلِّ ألوانه .

فالاستيلاء على مال الآخرين بلا رضاهم ظلم . وقتل النفس البريئة ظلم ، والتمتع بامتيازات موروثة عن الآباء ظلم .

وحرم عليهم الأخذ بالثأر ، لانه يشق الصف ويورث الشقاق . ونهاهم عن الربا لانه ظلم وربح بلا جهد ، مبتدئاً بأقرب الناس به .

وحذّرهم من مكايد الشيطان منبهاً على وجوب التزام اليقظة والحذر من وسائل إفساده للأخوّة بين المسلمين وتفريق صفوفهم ، بعد أن عجز عن تكفيرهم وإشراكهم . وقد يكون الشيطان من الجن أو الإنس . وجعل تلك الفرقة لوناً من الكفر .

ودعاهم إلى تأدية الأمانات إلى أصحابها ، وأن يبلّغ كُلّ منهم الرسالة الإسلامية الخالدة إلى الناس كافة .

الكتابة

عرف العرب الكتابة قبل الإسلام ولكنها كانت محدودة الانتشار ، وفي أعداد قليلة منهم ، وبعد انتشار الإسلام بينهم بدأت الكتابة تنتشر في مختلف أوساط المجتمع لازدياد الحاجة إليها ، وللتطور الكبير الذي حدث في حياة العرب ، فاتسعت آفاقها .

وقد نوّه الإسلام بالكتابة وحثَّ عليها في كثير من الآيات والأحاديث والمواقف العملية.

ومن أكبر مظاهر الكتابة في هذا العصر (الرسائل) التي بدأت في عصر مبكر من حياة المسلمين ، فاتخذ الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) كتّاباً متخصصين لكتابة الرسائل النبوية وواظب بعض الكتّاب على الكتابة له مثل زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم ، وكتب له بعضهم في مناسبات معينة مثل شُرَحْبِيل بن حسنة ومعاوية بن أبي سفيان وحنظلة بن الربيع الكاتب .

كانت الرسائل وسيلة مهمة لاداء حاجات الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) السياسية والدينية ؛ إذ كتب الرسائل إلى رؤساء القبائل العربية أو الطوائف الدينية في الجزيرة وما جاورها يدعوهم إلى الإسلام ، وكاتب ملوك الدول المجاورة كقيصر الروم وكسرى الفرس ومقوقس القبط في مصر والنجاشي ملك الحبشة ، كما اتخذها وسيلة لمعالجة الموضوعات التشريعية والتوجيهية في أمور حياة المسلمين المختلفة .

وفي عصر الراشدين ظلت الرسائل امتداداً للرسائل النبوية مع تطور يناسب ما استجد من أحداث ، سواء من حيث معانيها أم موضوعاتها ، إذ استجدت ألوان لم تُعرف مثل الرسائل الحربية والإخوانية والإدارية والسياسية .

وأبرز ما يميز رسائل هذا العصر :

١ – بُعدها عن التصنع والتزويق ، لأنها كانت تُملى إملاء .

٢ – صدق العاطفة والإحساس .

٣ – جمال الصورة والتألق في الخيال .

٤ – اقتباس الآيات القرآنية ، وتضمين الأحاديث النبوية الشريفة والأمثال والأشعار .

٥ – سهولة الألفاظ وفصاحتها ، والوضوح في المعنى ، والإيجاز غير المخل .

٦ – خلوها من عبارات التفخيم .

٧ –أما بناؤها ، فكانت تُستهل بالبسملة ، وأحياناً باسمك اللهمَّ .

ويُصَرَّح باسم المرسِل والمرسَل إليه ، من غير تعظيم أو تفخيم فالسلام والتحميد والتشهد أحياناً ثم التخلّص إلى الغرض الأصلي بـ (أما بعد) وتختم بالسلام والدعاء.

وأبرز كُتابِ هذا العصر بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) الخلفاء الراشدون والولاة والقادة كعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح .

نصوص من القرآن الكريم

قال تعالى :

﴿واعتَصموا بحبلِ الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نِعمة الله عليكم إذْ كُنتم أعداءً فألّفَ بين قلوبكم فأصبحتُم بنعمتهِ إخواناً وكنتم على شَفا حُفرةٍ منَ النارِ فأنقذكم منها كذلك يُبيّنُ اللهُ لكم آياتهِ لَعلكم تَهتَدون ﴾

(آل عمران / ١٠٣)

اللغة

اعتصموا : تمسَّكوا .

حبل الله : دينه ونهجه ، وقيل الجماعة .

فألَّفَ : فجمع ووحد .

شفا : طرفٌ وحافةٌ .

آياته : علاماته وعجائبه .

المعنى العام

وحّد الإسلام بين القبائل العربية ومنها الأوس والخزرج في يثرب . فانقلبت العداوة بعد الإسلام إلى أخوّة ومحبَّة ، وقد مرّ رجل من اليهود بقوم من الأوس والخزرج بعد الإسلام، فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة ، فبعث رجلاً معه ، وأمره أن يجلس بينهم

ويذكر لهم ما كان من حروبهم يوم (بُعاث : وهو من أيام الحرب بينهم قبل الإسلام) ففعل ، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم ، وغضب بعضهم على بعض، وثأروا، ونادوا بشعارهم ، وطلبوا أسلحتهم وتوعدوا إلى منطقة (الحرة) خارج المدينة، فبلغ رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) فأتاهم ، فجعل يسكنهم ويقول : (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم) وتلا عليهم هذه الآية فندموا على ما كان منهم ، واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح .

دعا المسلمين في هذه الآية إلى الألفة والمحبَّة ، وأن يتمسكوا بدينه وقرآنه ليتوحدوا قال الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) : إنّ هذا القرآن هو حبل الله ، ونهاهم عن الفرقة لأن الفرقة هلكة والجماعة نجاة . . .

وذكرهم بإنعامه عليهم ، حيث كانوا أعداء متخاصمين يقتل بعضهم بعضاً ، فجمع بالإسلام قلوبهم فصاروا بنعمته إخواناً في الدين ، وكانوا على وشك السقوط في النار ليس بينهم وبينها قبل إسلامهم إلاّ أَنْ يموتوا كفّاراً فأنقذهم بالإيمان .

وهذا تمثيل يُراد به خروجهم من الكفر إلى الإيمان . وقد ضرب الله لهم هذا المثل للتذكّر والرشاد .

قال تعالى :

﴿ ومَنْ أَحسَنُ قَولاً مِمَّنْ دَعَا إلى اللهِ وَعَمِلَ صَالحاً وَقالَ إنّني من المسلمين ، وَلَا تستَوي الحسنَةُ وَلَا السَّيئةُ ادفعْ بالتي هي أحسَنُ ، فإذا الذي بينكَ وَبينه عَداوةٌ كَأنه وَليٌّ حميمٌ وَما يُلقَّاها إلاَّ الذينَ صَبروا ، وَمَا يُلقَّاها إلاَّ ذو حظٍ عَظيمٍ ﴾

(فصلت / ٣٣-٣٥)

اللغة

تستوي : تتماثل وتتساوى .

وليّ : صديق محب .

حميم : قريب .

وما يلقاها : وما يعطى دفع السيئة بالحسنة .

ذو حظ : ذو نصيب من الخيرات .

المعنى العام

أي كلام أحسن من كلام الله سبحانه ؟ ومَن أحسن قولاً من الداعي إلى اللهِ وطاعته ؟ والكلمة الطيبة وحدها لا تكفي إن لم تقترن بالعمل الصالح ، وبالاستسلام لخالق الكون وعبادته .

ولا يهم مَنْ يدعو إلى الخير ألّا يستجاب له ، أو أن يُرد عليه بسوء الأدب . إذ لا تتساوى الحسنة التي قالها مع السيئة التي قوبل بها .

فمتى عرف المسلم ذلك فسيقابل غضب المسيء بالصبر وجهله بالحلم وإساءته بالعفو.

قال ابن عباس : « ادفع بالتي هي أحسن » أي ادفع بحلمك جهل مَن يجهل عليك . فيصير العدوّ الأحمق كالصديق القريب في محبته ، فما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه .

قال الشاعر :

وما شيءٌ أحبُّ إلى سفيهٍ　　　إذا سبَّ الكريمَ من الجوابِ
متاركةُ السفيهِ بلا جوابٍ　　　أَشدُّ على السفيه من السبابِ

ولا ينال هذه الخصلة الكريمة إلا الذين يكظمون غيظهم ، ويحتملون الأذى بالصبر ممن لهم نصيب وافر من الحظ الموهوب الذي يمنحه الله من يحاول من عباده فيستحقه .

وهذه السماحة قاصرة على حالات الإساءة الشخصية ، لا حالات العدوان على العقيدة والأمة والوطن ، فعند ذلك يكون الدفع بالقوة والمقاومة بكُلِّ صورة حتى يرتعد المعتدون، وتسلم الحقوق .

١ – النهي عن الغش

(للدرس فقط)

مر رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) على صبرة طعام ، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله، قال : أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ، من غش فليس مني .

(رواه مسلم)

اللغة

الصبرة : الكومة المجموعة من الطعام .

أصابته السماء : أصابه المطر .

ليس مني : ليس ممن اهتدى بهديي ، واقتدى بعلمي واتصف بأخلاقي .

المعنى العام

يضرب الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) في هذا الحديث مثلاً رائعاً باستخدامه العبارة الموجزة البليغة (من غش فليس مني) من أجل بناء علاقات إنسانية سليمة ناهياً عن الغش والاحتيال كونهما يعبران عن فساد ضمير . والإضرار بالآخرين ، وإضعاف الثقة بين أبناء المجتمع فهو يوجه النفس البشرية إلى كبح جماح شهواتها المادية ، وتجنب الاستغلال والابتعاد عن التزييف والكسب غير المشروع ..

٢ - الإِسلام الصحيح

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال :

قلتُ : (يا رسول الله ، قل لي في الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك) قال : (قُل آمنتُ باللهِ ثم استقم) .

(رواه مسلم)

اللغة

في الإِسلام : في تحديد حقيقته الشرعية .

عنه : عن الإِسلام .

استقم : اسلك الطريق القويم الذي لا عِوج فيه ولا انحراف ، لأن الاستقامة مأخوذةٌ من القيامِ وهو الاعتدال وعدم الاعوجاج .

الماء شريان الحياة فحافظ عليه من التلوث .

المعنى العام

عندما سأل هذا الصحابي رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) عن حقيقة الإسلام ، وأراد منه جواباً يغنيه عن سؤال غيره مدى الحياة أجابه الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) بكلمة موجزة جامعة : قل آمنت بالله ثم استقم . لأن الإيمان بالله أصل الدين وأساسه .

والاستقامة هي ما يتبع الإيمان (أي الإقرار بالقلب واللسان) من طاعة الله والعمل بأوامره ، والوقوف عند نواهيه .

وهي كما تكون في الأعمال تكون في الأخلاق والأحكام والآراء .

والجواب في جملته مقتبس من قوله تعالى :

(إنَّ الذين قَالوا رَبُّنا اللهُ ثم استقاموا فلا خوفٌ عليهم وَلا هُم يَحزنون)

(الاحقاف / ١٣)

رسالة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى أبي موسى الأشعري*

(للدرس والحفظ : ٥ أسطر إلى في عدلك)

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رسالة في القضاء حين ولاه قضاء البصرة ، جاء فيها :

(بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، سلامٌ عليك ، أما بعدُ :

فإِنَّ القضاءَ فريضةٌ مُحكمةٌ ، وسنَّةٌ متَّبعةٌ . فافهم إذا أُدلي إليكَ فانه لا ينفعُ تكلُّمٌ بحق لا نفاذَ لهُ . آس [١] بين النَّاس بوجهكَ ، وعدلك ، ومجلسكَ ، حتى لا يَطمع شريفٌ في حيفكَ [٢] ، ولا ييأس ضعيف في عدلك .

البيِّنَةُ [٣] على من ادعى ، واليمينُ على من أنكر . والصُّلحُ جائزٌ بين المسلمين ، إلاَّ صُلحاً أحلَّ حراماً ، أو حَرمَّ حلالاً .

لا يمنعَّنك قضاءٌ قضيتهُ اليوم فراجعتَ فيه عقلكَ وهُديتَ فيه لرشدكَ ، أن ترجعَ إلى الحقِّ ، فإِنَّ الحقَّ قديمٌ ، ومراجعةُ الحقِّ خيرٌ من التمادي في الباطل .

الفهمَ الفهمَ فيما تلجلجَ [٤] في صدرك مما ليس في كتابٍ ولا سُنَّةٍ ثم اعرف الأشباه والأمثالَ فقس الأمور عند ذلك .

* الكامل : المبرد / ج١ / ١٢

واعمد إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحقِّ . واجعل لِمن ادّعى حقّاً غائباً أو بيِّنَةً أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بيِّنتهُ أخذت له بحقِّه وإلا استحللتَ عليه القضيّةَ ، فإنّه أنفى للشكِّ وأجلى للعمى . المسلمون عُدولٌ بعضُهم على بعضٍ ، إلاَّ مَجلوداً في حَدٍّ ومُجرباً عليه شهادةُ زُورٍ ، أو ظنيناً (٥) في ولاءٍ أو نسبٍ ، فإنَّ اللّٰه تولىَّ منكمُ السرَّائر . ودرأ (٦) الحدودَ بالبيناتِ والايمانِ .

وإياكَ والغلقَ والضَّجر (٧) والتأذِّي بالخصومِ والتّنكرَ عندَ الخصوماتِ ، فإنّ الحقّ في مواطنِ الحقِّ ليُعظمُ اللّٰهُ به الأجر ، ويُحسنُ الذُّخرَ .

فمن صَحَّت نيَّتُهُ وأقبل على نفسه كفاه اللّٰه ما بينه وبين الناس ، ومن تَخلَّفَ للناس بما يعلم اللّٰه أنه ليس من نفسه شانَهُ ، فما ظنك بثواب غير اللّٰه عزّ وجل في عاجلِ رزقه وخزائن رحمته . والسلام .

اللغة

(١) آسِ : من المؤاساة : بمعنى المساواة أي سوّ بين الناس .

(٢) الحيف : الظلم .

(٣) البينة : الحجة والدليل .

(٤) تلجلج : تردّد.

(٥) الظنين : المتهم .

(٦) درأ : دفع .

(٧) الغلق والضجر : ضيق الصدر وقلة الصبر .

المعنى العام

جعل خلفاء صدر الدولة العربية الإسلامية الحقّ والعدل نُصب أعينهم فألزموا بهما أنفسهم ودعوا إليهما الولاة والقضاة . ورسالة عمر (رضي الله عنه) في القضاء واحدة من رسائل كثيرة خاطب بها الخلفاء ممثليهم في الإدارة والحكم والقضاء .

وقد وصف المبّرد هذه الرسالة فقال ، (جمع فيها جُمل الأحكام ، واختصرها بأجود الكلام، وجعل الناس يتخذونها بعده إماماً ، ولا يجد محقٌّ عنها مَعدلاً ، ولا ظالم عنها محيصاً)* .

(القضاء فريضة ..)

يريد أن ما يحكم به الحاكم نوعان : فرض محكم في كتاب الله ، وأحكام سنَّها رسول الله (ص)

(فافهم .....) .

اي عليك بفهم ما توصل إليك من الكلام الذي تحكم به بين الخصوم .

(فانه لا ينفع ....) .

يريد الحث على تنفيذ الحقّ إذا فهمه الحاكم ، ولا ينفع تكلمه به إذا لم يكن له قوةٌ

* الكامل : المبرد / ج١ / ١٢

تنفذه ، فهو تحريض منه على العلم بالحقِّ والقوة في تنفيذه .

(وآسِ بين الناس ......) .

إذا عدل الحاكم في هذا بين الخصمين فهو عنوان عدله في الحكم لكيلا يطمع الشريف ذو النفوذ في أن يكون الحكم له فيتقوى وييأس الضعيف من عدله فيضعف وتنكسر حجته .

(والصلح جائز ...) .

مأخوذ من حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) : « الصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحاً حرّم حلالا أو أحلَّ حراما ، والمسلمون على شروطهم ، إلا شرطاً حرمّ حلالا أو أحلَّ حراماً » .

وقد ندب الإسلام إلى المصالحة بين المسلمين عند التنازع حتى في الدماء . فالصلح الجائز بين المسلمين هو الذي يُعتمد فيه رضا الله ورضا الخصمين .

(ولا يمنعك ....) .

يريد إذا اجتهدت في حكم ، ثم وقع لك أمر مرّةً أُخرى ، فلا يمنعك الاجتهاد الأول من إعادته ، فإنّ الاجتهاد قد يُغيّر ولا يكون الاجتهاد الأول مانعاً من العمل بالثاني إذا ظهر أنه الحقّ . فإن الحقّ أولى بالاتباع .

(الفهم الفهم ...) .

تدعو الرسالة إلى التزام العقل ، وتحكيم الفهم فيما لم يرد في حكمه نص من قرآن أو حديث ، ومعرفة أشباه لتلك الحادثة فيقيس عليها وهو ما يسمى بالقياس .

(واجعل لمن ادعى ....) .

من العدل أن تعطي مهلة لمن ادعى فإن المدعي قد تكون حجته أو بينته غائبة ، فلو عجَّل عليه بالحكم لَبَطَلَ حقّه ، فإن سأل أحدٌ أن يحضر فيه حجته أُجيب إلى ذلك .

(المسلمون عدول ...)

تقبل شهادة أي مسلم ، لأن المسلمين شهود عدول ، إلا مَنْ قام به مانع الشهادة وهم : مَنْ جُرب عليه شهادة الزور ، أي الكذب ، فلا يوثق بشهادته لأنّ شهادة الزور من أفعال الكبائر . ومن جُلد في حدٍّ شرعي ، وفُسر هذا الحدُ بالقذف ، ومن يُتهم بأَن يجر إلى نفسه نفعاً من المشهود له .

(فإن الله تولى ...) .

مَنْ ظهرت منه علانية خير ، قُبلت شهادته ، ووكلت كلّها إلى الله . والعقوبة تُدفع عن المتهم إلا إذا قامت البينات والأدلة والشواهد والأيمان (جمع يمين) في بعض الحالات .

(وإياك والغلق ...) .

ويحذره من التأذي بالخصوم في أثناء المرافعة أو التنكر لأنَّ الله سوف يضاعف له الأجر لو اصطبر عليهم بالعدل بينهم .

(فمن صحّت نيّتُهُ ....) .

إذا أخلص الإنسان في نيته عند الحكم ، فإن الله يحميه من الناس فلا يستطيعون إيذاءه وإن حاول مجاملتهم فلم يلتزم بالحقِّ فإن الله سوف يفضحه أمام النّاس .

(للدرس والحفظ خمسة أسطر من : وأشعر قلبك إلى ... وابتلاك بهم)

وَأَشْعِرْ قَلبكَ الرحمةَ للرعيةِ ، والمحبةَ لهم ، واللُّطفَ بهم . ولا تُكونَنَّ عليهم سَبُعاً ضارياً[١] تغتنمُ أكلَهُم ، فإنهم صِنفان إمّا أخٌ لك في الدين وإما نظيرٌ لكَ في الخلقِ يَفْرُطُ[٢] منهم الزلَلُ وتعرضُ لهمُ العِلَلُ ، ويُؤتَى على أيديهم في العَمدِ والخطأ .

فأعطِهم مِنْ عَفوكَ وصَفحِكَ ، مثلَ الذي تَحبُّ أن يعطيك الله من عفوهِ وَصَفحِه ، فإنَّكَ فوقَهمُ ، ووالي الأمر عليكَ ، والله فوقَ مَنْ وَلاّك ، وقد استكفاك أمرَهُم ، وأبتلاك[٣] بهم ولا تَنصِبَنْ نفسَك لحربِ الله فإنَّهُ لا يَدَ لَكَ بنقمتهِ ولا غِنى بِك عن عفوه ورحمتِهِ ، ولاتندَمنّ على عفو ، ولا تبجحنّ[٤] بعقوبةٍ ولا تُسرِعَنّ إلى بادرةٍ وَجَدْتَ منها مندُوحة[٥] ولا تقولن إني مُؤمَّر آمرُ فأطاعُ ، فإن ذلك إدغالُ[٦] في القلبِ ، ومنهكةٌ للدين ، وتَقربٌ من الغِيَر[٧] ، وإذا أَحدَثَ لَكَ ما أنتَ فيهِ من سُلطانك أُبَّهَةً أو مُخيلةً فانظُرْ إلى عِظَمِ مُلكِ اللهِ فَوقَكَ وقُدرتهِ منك على مالا تقدرُ عليه من نفسكَ ، ذلك يُطامنُ[٨] إليكَ مِنْ طماحِك[٩]، ويكفُّ عنك مِنْ غربِكَ[١٠] ، وَيفيء[١١] إليكَ بما عَزَبَ[١٢] عنك من عَقْلِكَ .

---

* نهج البلاغة : شرح محمد عبده / ج٣ / ٥٦٤ ، ٥٦٥

اللغة

١- ضارياً : مفترساً .

٢- يفرط : يعجل ويسرع .

٣- ابتلاك : اختبرك وجربك .

٤- تبجحن : تظهرن الفرح .

٥- مندوحة : متسع .

٦- إدغال : إفساد .

٧- الغير : حادثات الدهر بتبدل الدول .

٨- يطامن : يخفف .

٩- طِماح : شَرّ .

١٠- غربك : حدُّ سيفك .

١١- يفيء : يرجع .

١٢- عزَب : بَعُدَ .

المعنى العام

كتب الإمام علي (عليه السلام) هذه الوصية إلى عامله مالك بن الأشتر لما ولاَّهُ على مصر وهي أطول رسالة كتبها . جاء فيها :

(وأشعر قلبك ...)

اجعل الرحمة لمن تبعك والمحبة وحسن المعاملة لمن في رعيتك كالشعار لقلبك . ولا تكونن عليهم ...

ولا تصيرنَّ كالأسد المولع بالفريسة ، فتنتظر استغلال أفراد الرعية .

(فإنهم صنفان ..) .

فالناس نوعان ، إما أخوك في الدين أو أخوك في الإنسانية ، وكلّ إنسان عرضة للخطأ والزلل عمداً أو سهواً .

(فأعطهم من عفوك ...) .

فمن واجب المسؤول والحاكم أن يعفو عنهم ، عن زلاتهم كما يحب أن يعفو الله عن زلاته .

لأن الله فوق الوالي وفوق من عَيَّنَ الوالي ، وضع كلاً منهم في هذه المسؤولية ليخبرهم ويرى ماذا هم فاعلون .

(ولا تندَمَنَّ ...) .

إذا عفوت فلا تندم على عفوك ، وإذا قدرت على عقاب أحد فلا تظهرن الفرح بتلك القدرة ، وإذا أردت الحكم في أمر فلا تستعجل ، وإن وجدت مخرجاً ومتسعاً في العفو فلا تتردد بسلوك ذلك المخرج .

(ولا تقولن إني مؤمر ...) .

ولا تقل إني حاكم آمر أستطيع الأمر فأطاع ، لأن ذلك مفسدة للقلب وإضعاف للدين، وتقرب إلى تغيير الأحوال نحو الأسوأ .

(وإذا أحدث لك ...) .

وإن اصابك الغرور والأبهة والعظمة للمنصب الذي أنت فيه فاذكر عظمة اللّٰه وقدرته على الأخذ منك والعطاء لك وإحيائك وإماتتك ، فإن تذكر ذلك يغض من تعظيمك نفسك وتكبرك ، ويمنع عنك ما تحس به من سطوة وسرعة في البطش والفتك .

كما يرجع إليك ما بَعُدَ عنك من عقلك واتزانك .

أثر القرآن في الأدب العربي

١- في اللغة

نزل القرآن الكريم بلغة العرب ، ونهج أساليبهم في التعبير ، وتميز بضروب كلامهم في الإيجاز والإطناب ، والحقيقة والمجاز، وما إلى ذلك من ألوان ، ومع كل هذا فقد فاقهم بلاغة وبياناً ، فتحداهم ، وهم أهل الفصاحة وأرباب البيان ، بأسلوبه الرائع.

وكان معجزة الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه) الكبرى ، ودليله على صحة نبوته . وللقرآن أبلغ الأثر في الأدب العربي سواء في الألفاظ أوالمعاني أوالتراكيب أو الصور .

واحتذى الشعراء والكتاب تلك الألفاظ والمعاني ، ونهجوا على طريقة تراكيبه وصوره .

كما أنه هذب لغة العرب وشذبها ، فأكسبها كثيراً من السلاسة والعذوبة ، ووحد لهجاتهم المتنوعة في لهجة واحدة ، هي لهجة قريش التي نزل بها الوحي على رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) .

وأشاع لغة العرب في أرجاء واسعة من العالم ، حيث صار يتكلم بها من دخل الإسلام ، وأصبحت اللغة الرسمية ، يتكلمون بها ، ويكتبون بكلماتها .

٢- في الشعر

ويتجلى تأثير القرآن الكريم في أشعار العصر الإسلامي ، حيث اقتبس الشعراء كثيراً من ألفاظه وعباراته ، وزينوا بها أشعارهم، من ذلك قول كعب بن زهير :

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ   قرآن فيهـا مواعيـــظ وتفصيـــل

فقد اقتبس كلمة القرآن التي وردت في قوله تعالى «إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون»[١]

وقول الشاعر :

مقــاومٌ لطغاة الشرك يضربهـم   حتى استقاموا ودين الله منصــور

مقتبساً كلمة (الشرك) التي أكسبها القرآن الكريم، وغيرها من الكلمات القديمة ، معنى جديداً كقوله تعالى : «ومَن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً»[٢] .

واحتذى الشعراء معاني القرآن الكريم وأفكاره ، من ذلك تأكيدهم معنى التوحيد وفكرته، كقول كعب بن مالك .

بأنَّ الله لـــيس لـــه شريـــك   وأن الله مولـــــى المؤمنينـــا

---

(١) سورة الزخرف الآية / ٣

(٢) سورة النساء الآية / ٤٨

إذ وردت هذه الفكرة في قوله تعالى : «لا شريك له» ومن المعاني القرآنية التي أكدها الشعراء فكرة القضاء والقدر كقول كعب بن زهير :

فقلت خلوا سبيلي لا أبـا لكـمُ   فكـل ما قدرَ الرحمنُ مفعـولُ

إذ نظر في هذه الفكرة إلى قوله تعالى : (ليقضى الله أمراً كان مفعولاً)

(الأنفال / ٤٤)

أما صور القرآن الكريم، فقد اعتمد الشعراء تشبيهاته ، واستمدوا من صوره الرائعة الجميلة ، من ذلك قول حسان مُصَوّراً وحدة المسلمين :

مستعصمين بحبـل غيـر منجلـم   مستحكـم مـن حبال الله ممدود

إذ وردت هذه الصورة في قوله تعالى :

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)

(آل عمران / ١٠٣)

ووجد الشعراء في قصص القرآن الكريم زاداً لا ينفَد ، ومعيناً لا ينضُب ، فاستمدوا منه كثيراً من إشاراتهم القصصية كقول النابغة الجعدي :

أو سبـأ الحاضريـن مـأرب إذ   يبنـون مـن دون سيله العرما

يشير في ذلك إلى قصة سبأ التي وردت في سورة سبأ .

ومن ذلك قول كعب بن مالك :

وإن تك نمل البر بالوهم كلمت   سليمان ذا الملك الذي ليس بالعمي

مشيراً إلى قصة سليمان (عليه السلام) وتكليمه النمل .

أما تأثر النثر العربي بالقرآن الكريم فلا يقل عن تأثر الشعراء ، فقد استعار الخطباء والكتاب من ألفاظه ومعانيه ما وشحوا به عباراتهم وزينوا اساليبهم . واحتذوا بلاغة تراكيبه وفصاحة ألفاظه مع إيجاز كلماته وسعة معانيه وسلامة أسلوبه .

وافتتحوا خطبهم ورسائلهم بما ورد فيه من عبارات ذكر الله ، وصيغ حمده وتمجيده .

بعد أن وَطَّدَ الإِسلام لدولته دعائم البقاء والاستقرار ، كانت الأمة تتحمل أعباء نقل القيم الجديدة إلى أمم الأرض وتحرير العراق والشام من جور ظلت مظالمه تلهب ظهور القبائل العربية في هذين المصرين ، فراح أبناء العروبةِ المؤمنون بالدين يندفعون بإيمان ويقاتلون بعقيدة ويسجلون آيات البطولة بإباءٍ وفخر يحملون تعاليم ومبادئ خيرة فكانت قوافلهم تنير طريق الهداية وجحافلهم تفرش دروب الحياة بكل ما يعيد إلى أولئك الناس طعم الكرامة ويمسح عن وجوههم قتامة السنوات الظالمة . وتشير المصادر التاريخية إلى الصلات الوثيقة التي كانت تشد بين المحررين وهم يشعرون بأواصر الصلة وقرابة النسب. ومن الطبيعي أن يخلِّف المقاتلون وهم يدخلون أرض العراق أو الشام وراءهم مناظر الصحراء التي ظلت عالقة في نفوسهم والمرابع التي عاشت في حياتهم والأهل الذين حملوا حبهم ، والأحبة الذين ظلت أسماؤهم لامعة في قصائدهم ليستقبلوا حياة جديدة ويتخذوا مواطن أخرى دعتهم الحاجة إلى البقاء فيها ويختلطوا بأقوام وجدوا في ظل الإسلام أمناً وفي تشريعاته حماية وفي سماحته كرامة فدخلوا في دين الله أفواجاً .

كما وجدوا في اللغة العربية لساناً يعبرون به عن فكرهم وحسهم وثقافتهم لأنها لغة التفاهم ووسيلة الحياة وأداة التعبير ولأنها لغة الدولة الرسمية التي تخضع لها نظمها وتكتب بها رسائلها فكثرت مصطلحات الإدارة والدواوين والجند وأدوات الحرب وصنوف الأسلحة ومفردات الحياة .

أما الشعر فقد ساعدت البيئات والاندية الادبية على انتعاشه والحركة الادبية بشكل عام . لأنها كانت المكان المناسب الذي يتبارى فيه الشعراء وتعرض فيه بضاعة الادب .

إلا أَنَّ تقدم الزمن ودخول الموالي وازدياد الاختلاط وظهور الثقافات والتأثر بالعلاقات التي خلقتها ظروف الحياة والتطور الاجتماعي، والاقتصادي والحضاري قد أثر في بناء القصيدة ولون مفرداتها بألوان المظاهر التي أصبحت جزءاً من الحياة الأدبية وانعكست على صورها فبهتت بعض ملامح الصحراء وضاقت دائرة الحديث عن المرابع وخضعت ألفاظ الشعر لهذا التطور فأصبحت تقصد لذاتها وأصبح الشعر الذي يجري في أول أمره غير مقيد بشيء شعراً يتكلف فيه الشاعر جمال الشكل تكلفاً ، ولم يعد من المهم أن يكون جزلاً قوياً وإنما تكون صورته جميلة ونسيجه اللغوي ليناً وظهرت ؛ بوادر هذا التغير في كثير من الشعر الذي تأثر بانتشار ضروب الموسيقا، ورقَّ لإيقاع الدفوف وترنيم الأغاني ، وأصبحت السهولة التي اتصف بها بعض الشعراء مذهباً عاماً واتجاهاً مقبولاً .

لقد فرضت تقاليد القبيلة وصلة الانتماء والشعور بالتواصل على شاعر ما قبل الإِسلام خصائص معينة فهو يوقف شعره كلّه على قبيلته ، وينشر محامدها وينوه بأشرافِ قبيلته وذوي النباهة منهم ، معتزاً بخصالهم النبيلة ومشيداً بمآثرهم الحميدة ، من كرم وشجاعة ونخوة ومروءة وحلم ووفاء وفروسية وإباء وعفة وحماية جار ، أو استجابة لنداء إنساني وكان لابُدّ لهذه التقاليد أن تضعف في عصر الدولة الاموية للأسباب التي وقفنا عليها في مقدمة هذا الفصل ويأخذ المديح جانباً مهماً منه لأسباب تخص الوفاء للقادة الذين أسهموا في بنائها والرجال الذين استثاروا في نفوسهم الشعراء رغبة التكريم، وحملوهم على أن يعبروا عن هذا الاعجاب بقصائد خالدة . ولم يكن القادة والأبطال الذين حملوا راية التحرير ، وسجلوا صفحات التضحية بعيدين عن ثناء الشعراء الذين وجدوا فيهم قوة لايصال صوت الحقِّ إلى أبعد بقعة ، وتخليص الإِنسان مما لحق به من جور ، فكانت أصداء هذه المدائح ترفع ناطقة بالفضل مشفوعة بالثناء ، ولابُدّ أن يمر الشعر وهو ينتقل من مرحلة إلى اخرى بحالة من التخلخل لما ألفه من بناء فني محكم في الشعر القديم ومضمون متجدد في الشعر الأموي ، وإن كانت كثير من تقاليد هذا البناء وما أوحته

تلك الصور وتوافق التعبير البلاغي قد تسرب إلى القصيدة الجديدة وأثَّر في نهجها وحدد بعض مساراتها ولكن الهيكل العام للقصيدة بدأ يتغير بوضوح كما أن التراكيب والمفردات أخذت منحى فيه بعض الاختلاف . ومثل ما مّر الشعر بمرحلة الانتقال فقد عانى الشاعر من هذه المرحلة معاناة نفسية ، وهو يحس أن التوفيق بين الولاء القبلي والخضوع للتقاليد الموروثة من حيث الالتزام ، وبين الولاء لأناس لا يمتون للقبيلة بصلة أصبح قضية نفسية صعبة وحالة من حالات المضايقة الذاتية الحرجة . وكاد أن يكون الخروج من هذا المأزق صعباً . وربما دفع الشاعر إلى التعبير عنه بالاشادة بنفسه والفخر بقبيلته وسرد مآثر قومه من خلال مديحه للآخرين . وقد تحول المديح في كثير من جوانبه إلى تصوير الفضيلة الدينية في الممدوح وقد وثّق هذا التصوير المعتقد السائد من أن الحكم والدين مرتبطان ارتباطاً وثيقاً ، وقد وجد الشعراء في ذلك مجالاً للحديث عن التقوى والعدالة السماوية . وأسهم الخلفاء والولاة والقادة في توسيع حركة المديح بما بذلوه من هبات وعطايا للشعراء ؛ إكراماً لجهودهم ووفاءً لدورهم في الحفاظ على هذا الموروث واعتزازاً بحبهم الذي يظهرونه في ثنايا هذه القصائد .

يمكن عَدُّ (النقائض) باباً من أبواب الهجاء بعد أن أصبحت فناً له خصائصه والتزاماته عند جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم من الشعراء الذين شاركوا في إذكاء أوار هذا الفن الذي قدم لنا نماذج جديدة ، وولَّد معاني محدثة ومفردات لم يسبق لهم استعمالها من حيث المدلول ، والنقائض خير قالب يصاغ فيه الهجاء ويتيح له استكمال الصورة الفنيةالمطلوبة بعد أن التزم شكلاً يمس بناء القصيدة الخارجي وموسيقاها العامة وهو التزام الشاعرين المتناقضين بحراً واحداً . وقافية واحدة ومنها ما يتصل ببنائها الداخلي وهو نقض الشاعر معاني خصمه .

ولم يخلُ هذا الفن من التوجيه الذي أعطى الشعراء قدرة الرقابة وتحديد السلوك الذي يأباه المجتمع وترفضه التقاليد وهم يفيضون في تحديد صفات المهجو ، ويختارون له أكثر الصفات نفوراً وأشدها وقعاً وأكثرها تأثيراً ، لتظل لصيقة بهم طوال حياتهم وتفزعهم صورتها ويرهبهم ظلها ويؤذيهم ذكرها ، ولعل الخوف والهلع والبكاء الذي أثارته بعض قصائد الهجاء يعطينا صورة التأثر الذي تركه هذا الشعر في توجيه المجتمع توجيهاً سليماً ودفعه إلى تجنب كل صورة يأنفها ولا يرضاها .

ويعد الشعر السياسي الذي أُطلق عليه شعر الفرقِ الإسلامية واجهة جديدة عبّر من خلاله أصحابُ الفكر عن النموذج المطلوب في الخلافة بكل حرية وأفاضوا في مواقفهم.

وعلى الرغم من اشتداد المنافسة واحتدام الجدل وقوة المعارك فإنّ الرأي الحرَّ بقي صوتاً مرفوعاً وكلمة تقال فكراً يُدافع عنه وقد انفرد هذا الضرب الشعري بخصائص منها : اعتماده وثيقة تاريخية وسياسية وعقائدية ، واستغراقه في التعبير عن الرأي والاحتجاج لما يسعون إليه من أفكار ، والتأثير في أصحاب الاتجاهات الأخرى للرد عليهم ، أو إبطال حججهم أو تقييد معتقدهم ، والشعر في كل صورة من هذه الصور يصطنع الادلة والبراهين ويعتمد القياس والاستدلال ويحمل طابع التأثير العاطفي ، ويتجه الشعر السياسي إلى التعبير عن المشاعر بإيمان ، ويذهب في أغراض يجمعها الجهاد في سبيل العقيدة واسترخاص الحياة وطلب الشهادة ، وفي إطار هذه المعاني كان الرثاء في الشعر السياسي إشادة بنبل الغاية وسمو المبدأ ورسم الصور المشرقة التي يُحققها المقاتلون والمؤمنون بعقيدتهم في الترامي على حياض الموت . أما المدح فيأخذ جانب التعبير عن الثناء بالشجاعة والصلابة ، والإيمان والصدق والقدرة على المواجهة ولم يكن الهجاء إلا للخصال التي اعتمدوها في المديح فكان التردد والتخاذل والتراجع والفرار في الحرب من الصفات التي يُذم بها المهجو ولابدّ أن تأتي معاني هذه الأغراض جديدة وأساليبها موفقة وصورها مستمدة من طبيعة المعالجة التي رافقت الأحداث وواكبت حركة التجديد والتطورات في هذا العصر [١] .

(١) ينظر الحديث عن شعر الفتوح في المقدمة بصفته موضوعا من موضوعات الشعر التي تجددت معانيه في هذا العصر وتوسعت افاقه .

الغـــزل

اتجه الغزل في هذا العصر اتجاهين عَبّرَ شعراء كل اتجاه عن فكرهم وعاطفتهم وموقفهم من المرأة ، فالشعراء العذريون عُرفوا بغزلهم النقي الطاهر ، وتعلق العاشق بمحبوبة واحدة يرى فيها مَثَلَهُ الأعلى الذي يحقق متعة الروح ورضا النفس واستقرار العاطفة وهو استقرار يجعل فتنته بواحدة تقف عندها آماله ، وتتحقق فيها أَمانيه وهو الهدف الذي يطلبه والغاية التي يسعى إليها والأمل الذي يرتجيه . وقد ترك لنا هذا الشعر نماذج من العشاق خلدت أسماؤهم عفة وعاشت ذكرياتهم صوراً من صور الوفاء الإنساني والتضحية الخالدة .

أما الشعراء الآخرون الذين وجدوا في الحديث عن المرأة إرضاء لحواسهم فكانوا يمثلون الصورة التقليدية التي واكبت الحياة الأدبية وربما غلب على كثير منهم طابع التصور والإفراط في استحداث الوسائل التي يعبرون فيها عن اللقاء العابر والحديث الصريح . ويمثل عمر بن أبي ربيعة والعرجي والأحوص هذا التيار الذي قدم لنا لوحاتٍ رائعة في الحوار التجسيدي الذي اعطى المرأة فيه نصيباً من الحديث .

هو همام بن غالب بن صعصعة ، والفرزدق لَقَبُه . ولد عام ٢٥ هـ ونشأ في البصرة وتوفي عام ١١٠ هـ . وقد عُرف أبوه بمناقبه المشهورة ، وكان جده أحد سادة العرب وأشرافها في عصر ما قبل الإِسلام ، ذاع صيته لمكارمه التي كانت مضرب المثل . وكان لنشأته في بيت كريم ذي مآثر ومفاخر وقبيلة لها سلطان واسع ، وأيام مشهورة أثر عميق في الاعتداد بهما ، والتفاخر بمحامدهما ، وهو يرد على خصومه ويناقض أعداءه والشعراء الذين حاولوا الانتقاص من هذا البيت وهذه القبيلة ، وتبقى قصائده سجلاً مملوءاً بمفاخر قومه وأيامهم التي بوأتهم المراكز المرموقة ، وحققت لهم الريادة في بيوت الشرف والسيادة ، ورفع أمر هجائه في بني تميم إلى زياد بن أبيه وكان ذلك في سنة خمسين للهجرة فطلبه وخافه الفرزدق فهرب منه متجهاً نحو البادية ومنها انتقل إلى المدينة وكان عليها سعيد بن العاص من قبل معاوية فأمنه وأجاره فمدحه مدائح كثيرة .

وطرق الفرزدق أغراض الشعر المعروفة في عصره واستطاع أن يتفوق على معاصريه في الفخر لثقته بأمجاد آبائه واعتداده بمفاخرهم ، واستلاله من تاريخ حافل بكلِّ ما يدعو إلى الفخر ويبعث على الاعتزاز وكان الفرزدق نبعاً من ينابيع الشعر ....

قال الفرزدق مادحاً الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليهما السلام) :

(للدرس والحفظ : ٨ أبيات)

هذا الّذي تعرفُ البطحاءُ وطأتَهُ ... والبيتُ يعرفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ[١]

هذا ابنُ خَيْرِ عبادِ اللهِ كُلِّهِمُ ... هذا التّقي النَّقيُّ الطّاهِرُ العَلَمُ

هذا ابنُ فاطمةٍ ، إنْ كُنْتَ جاهِلَهُ ... بِجدِه أَنبياءُ اللهِ قَدْ خُتموا

وَلَيسَ قولكَ : مَن هذا ؟ بِضائِرِه ... اَلعُرْبُ تعرفُ مَنْ أنكَرْتَ والعَجَمُ[٢]

سَهْلُ الخَليقَةِ ، لا تُخشى بَوادِرُهُ ... يَزينهُ اثنان : حُسْنُ الخَلْقِ والشِّيَمُ[٣]

عَمَّ البريةَ بالإِحسانِ فانقشعت ... عنها الغياهبُ والإِملاقُ والعَدَمُ[٤]

إذا رأتهُ قريشٌ قالَ قائلُها ... إلى مكارم هذا ، ينتهي الكرمُ

يغضي حياءً ، ويغضى من مهابته ... فما يكلَّمُ إلا حين يبتسمُ[٥]

ينشق ثوبُ الدجى عن نورِ غُرّته ... كالشمس تنجابُ عن إشراقها الظُلَمُ

من معشرٍ حبُّهم دِينٌ ، وبُغْضُهم ... كفرٌ ، وقربُهمُ منجى ومعتصَمُ[٦]

اللغة

١- البطحاء : أرض منبسطة في وسطها مكة .

- الوطأة : موضع القدم .

- البيت : الكعبة .

- الحل : ما جاوز الحرم من الأرض.

- الحرم : ما لايحل انتهاكه ، ويراد به مكة وما جاورها من أراضٍ .

٢- ضائره : مضرّ به ، أي محط من قدره .

٣- الخليقة : الطبع .

- البادرة : الحدة أو مايبدو من الإنسان عند غضبه .

- الشيم : الأخلاق .

٤- انقشعت : انجلت ، تكشفت .

- الغياهب : الظلمات .

- الإملاق : الفَقر .

٥- يغضي : يخفض الطرف ، أي أنه يغض طرفه حياء ، ولكن الناس لعظم هيبته لايرفعون إليه أبصارهم إلا إذا ابتسم لهم إيناساً .

٦- معشر : قوم .

- معتصم : ملجأ .

تعليق نقدي

ذكر أبو الفرج الاصفهاني أنّ هِشام بن عبد الملك حج في أيام أبيه ، وطاف في البيت الحرام ، وجهد أن يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه، فلم يقدِر على ذلك لكثرة الزّحام ... فنُصِبَ له كرسيٌ وجلس عليه ينظر، ومعه جماعة من أعيان أهِل الشام . وبينما هو كذلك ، إذ أَقبل زين العابدين علي بن الحسين (عليهم السلام) فطافَ بالبيت ، ولما انتهى إلى الحجر الأسود ، تنحى له الناس حتى استلمه ، فقال رجُلٌ من أهل الشام لهشام: مَنْ هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة ؟

فقال هشام : لا أعرِفُهُ ، مخافةَ أن يرغِّبَ فيه أهل الشام . وكان الفرزدق حاضراً فقال : أنا أعرِفهُ ثم اندفع فأنشد قصيدته هذه فأغضبت هشاماً فأمر بحبسه بين مكة والمدينة .

لقد استهل الشاعر قصيدته بتعريف زين العابدين ممتدحاً ومعظماً .. فهو أفضل الناس تقىً وطهارةً وشهرةً ؛ إذ انحداره من صلب النبي محمد (صلى الله عليه وآله وصحبه) وفاطمة (عليها السلام) .. فَمَنْ تَنكرَ له وتجاهله لا يضيره ولا يخزيه .. لأنَّ الملأ كله يعرفه ويقر بتفوقه وإنسانيته وعصمته .. فهو الكريم السمح، الطلق الوجه ، الحسن الخَلق والخُلق

سَهْلُ الخَليقَةِ ، لا تُخشى بَوادِرُهُ　　　يَزينهُ اثنان : حُسْنُ الخَلْقِ والشِّيَمُ

الذي يمتلك المهابة والحياء ..

يغضي حياء ، ويغضى من مهابته　　　فما يُكلَّم إلا حين يبتسم

وهذا المدح مبطن بهجاء ، والتنويه بشهرة الممدوح رداً على مَنْ جهل من قدره . . .

هــذا الّذي تعرفُ البطحاءُ وطأتَهُ   والبيتُ يعرفُـهُ والحِـلُّ والحَـرَمُ

وَلَيسَ قولكَ : مَن هذا ؟ بِضـائِرِه   اَلعرْبُ تعرفُ مَنْ أنكَرْتَ والعَجَمُ

وهذا يعني أنّ القصيدة صدرت عن شعور عاطفي جياش لكونها متسمة بمياسم الارتجال والارتجاز فهو يستهلها دون مقدمة كما هو مأثور في شعر المديح فقد اقتضته المناسبة أن يبادر القول ، دون تمهل بفعل الحماس والإيثار .. فضلاً على استناده إلى التكرار اللفظي في اسم الاشارة (هذا) والنعوت (التقي - النقي - الطاهر - العلم- سهل الخليقة ...) مع الإكثار من الألفاظ الدينية (البطحاء - البيت - الحل - الحرم) ومن ثم نمو المضامين وتصاعدها وارتفاع هاماتها بحماس وصدق في إيقاع منتظم مع صدق العبارة وانهمار المعاني .

هو جميل بن معمر من بني عذرة ، ولد نحو ٤٠ هـ في وادي القرى ونشأ فيها وتعلق بثينة وتعلقت به فخطبها إلى أبيها ولكن أباها ردَّه ، وقد ألهمته الشعر فتغنى بها وعرفت بثينة ذلك فمنحته حبها وعطفها وبسبب ما تعرضت له احتجبت راغمة واضطر أهلها إلى أن يستعدوا عليه مروان بن الحكم ولم يكتف أهلها بذلك وإنما زوجوها من فتى في القبيلة ، فاسودت الدنيا بعين جميل والتاع لهذا الخبر التياعا شديداً وهام على وجهه وصور حاله فقال :

علقت الهوى منها وليداً فَلَمْ يزلْ   إلى اليوم ينمي حبُها ويزيدُ
وأفنيتُ عمري في انتظارِ نوالها   وأبليتُ فيها الدهرَ وهو جديدُ

ويظل جميل أسير هذا الحب ، يشقى بمرارته ويتعذب ببعده ويعنف من أجله ، حتى يرحل إلى مصر متحملاً من الجهد في عشقها ما يطيق وما لا يطيق ، إلى أن وافاه الأجل سنة اثنتين وثمانين ولايزال اسم بثينة نغماً يتردد على لسانه ، وصوتاً لا يفارق أنفاسه الأخيرة .

قال جميل بثينة :

(للدرس والحفظ : ٨ أبيات)

ألا ليــتَ أيــامَ الصّفــاءِ جَديــدُ … ودهـــراً تولّــى يا بُثيــنُ يعــودُ[١]

فَنغنــىَ كمـــا كنّـا نكـونُ وأنتُـم … صديـــقٌ وإذ مـــا تبذليـنَ زهيــــدُ[٢]

خَليلـــيَّ ما أُخفي من الوجدِ ظاهرٌ … ودَمعي بما أُخفي الغَـداةَ شَهيــــدُ[٣]

إذا قُلْـتُ : ما بي يـا بُثينةُ قاتلـي … مـــن الحـــبِّ ، قالَـتْ : ثابِـتٌ ويَزيـدُ

وإن قُلتُ رُدّي بعض عقلي أعشْ به … مـعَ النّاسِ قالَـتْ : ذاكَ مِنـكَ بَعيـــدُ

فـلا أنـا مَـردودٌ بـما جِئـتُ طالبـاً … ولاحبُّهـــا فيمـــا يَبيــــدُ يَبيــــدُ

فأفنيتُ عُمـري في انتظارِ نَوالِهـا … وأبليــتُ منهـا الدَّهـرَ وهوَ جَديدُ[٤]

علقـتُ الهوى منهـا وليداً فلَمْ يَزلْ … إلـى اليــوم يَنمـي حبُّهـا ويَزيــــدُ[٥]

ألا ليـتَ شِعـري هـل أبيَتـنَّ ليلــةً … بـــوادِي القُـرَى إنـــيْ إذنْ لسَعيدُ[٦]

وقـد تَلتقـي الأشتـاتُ بعدَ تَفـرُّقٍ … وقـد تُـدرَكُ الحاجـاتُ وهـيَ بَعيــدُ[٧]

يـموتُ الهـوى مِنّي إذا ما لَقيتُها … وَيَحيـــــا إذا فارقتُهـــــا فيَعـــــودُ

يقولـونَ جاهـدْ يا جميـلُ بغَزوةٍ … وأيَّ جهـــادٍ غيرَهُــــنَّ أُريــــــدُ

لِكُـلّ حديـثٍ بينهُـنَّ بشاشــةٌ … وكـــلُّ قتيـــلٍ بينهُـــنَّ شَهيــــدُ

اللغة

(١) تولّى : انقضى .

(٢) نغنى : نقيم .

- زهيد : قليل .

(٣) خليلي : صاحبي وهي صيغة استعملت في القصيدة للدلالة على الرفقة والسفر وتأخذ صيغة المثنى .

- الوجد : شدة الحب . الغداة : الوقت ما بين الفجر وطلوع الشمس .

(٤) نوالها : عطاؤها .

- أبليت : أخلقت .

(٥) ينمي : ينمو .

(٦) ليت شعري : ليت علمي .. وادي القرى : وادٍ في الحجاز قرب المدينة المنورة .

(٧) الأشتات : المتفرقون .

التعليق النقدي

يصور جميل في أبياته حبَّه العذري ، ونقاءه الصافي ومودته الصادقة وطهره وعفته. وهي حالة عوَّدنا عليها شعراء هذا الاتجاه وهم يخلدون الوفاء الإِنساني ، ويتركون للأجيال حالات الإِنسان التي ترتفع عن كل ما يشين الوجه النقي لظاهرة الحب وينزهونه من كل ما يدفع عنه تهمة الحسية التي ظلت عالقة بأذهان بعض الباحثين

وهي أصواتُ تَذَكُّرٍ وأمنياتُ عودةٍ وآهاتُ تحسُّرٍ تسلل إليها من خلال التمهيد الشعري السهل ، وتوصل إلى المعنى المطلوب مستعيناً بالعبارة الرقيقة والمفردة المختارة الدالة والحوار الداخلي الذي ترك للشاعر حرية التحريك والاجابة والتذكر .. وقد استطاع أن يعبر عن إحساسه الداخلي بقناعته وهو يتذكر وادي القرى الذي شهد اللقاءات الأولى فحامت حول غدرانه نظرات العيون ، وتوزعت بين جداوله المنسابة أبيات الشعر الاولى. ومع قسوة الزمن الذي ضيَّق عليه أسباب اللقاء وضيَّع عليه مواقف لحظات السعادة التي كان يستشعرها بوجودها ، فإنّ أمله المرتقب ظل يداعب أحلامه وهو ينتظر ويتأمل ... وهي حالات نفسية عزز الشعراء بها أحلامهم ، ووثقوا صلتهم التي كثيراً ما تتعرض إلى الاهتزاز .. ويصل الشاعر إلى ذروة العطاء والتألق وهو يشير إلى الحالة النفسية الحادة في موت الهوى عند اللقيا وفناء أسبابه في الموعد المرتقب لما يغمره من شوق ويعتريه من سعادة .. ولكن الحالة التي تصورها أزلية تنتهي عند أول لحظة من لحظات الفراق فتتكاثر الهموم وتتكاثف موجات الألم ...

ويبقى جميل في ظل المقولات التي تدفعه للجهاد الذي يقتصر على الظفر ببثينة . ويبقى لحديث الأحبة طعمه الطيب ولضحكاتهن البشاشة في كل لون ....

أما العشاق الذين يتساقطون فهم الشهداء في حضرات الأحبة ... إنه الحديث الخالد الذي نشره جميل بثينة وبقي يتردد في كل جيل وعلى لسان كل الذين يجدون فيه صوت العاطفة الصادقة ولون الوفاء الإنساني الخالد ...

ليلى الاخيلية

هي ليلى بنت الأخيل [1] بن عقيل بن كعب ، وهي أشعر النساء ، لا يقدم عليها غير الخنساء . .

من شعرها في حبيبها (توبة) راثيةً له :-

(للدرس والحفظ : ٨ أبيات)

فأقسمـــت أرثـــي بعــــد توبـــة هالكـــاً   وأحفـــل مـــن دارت عليـــه الدوائـــرُ[1]

لعمـــرك مـــا بالمـــوت عـــارٌ على الفتى   إذا لـــم تصبـــه فـــي الحيـــاة المعايـــرُ

ومـــا أحـــدٌ حـــيٌّ وإن عـــاش سالمـــاً   بأخلـــد ممن غيبتـــه المقابـــــــــرُ

ومـــن كـــان مـــما يحـــدث الدهر جازعاً   فـــلابد يومــــاً أن يـــرى وهـــو صابـــرُ

وليـــس لـــذي عيـــشٍ من الموت مذهب   وليـــس علـــى الأيـــام والدهر غابرُ[2]

ولا الحـــيُّ مـــما يحـــدث الدهـــرُ معتـــبٌ   ولا الميـــت إن لـــم يصبـــر الحـــيُّ ناشـــر[3]

وكُـــلّ شبـــاب أو جديـــد إلـــى بلـــى   وكـــل امـــرئ يومـــاً إلـــى الله صائـــرُ[4]

فاقسمـــت لا أنفـــك أبكيـــك مادعـــت   علـــى فنـــنٍ ورقـــاء أو طـــار طائـــرُ[5]

---

(١) نسبها هنا إلى جدها الأعلى .

معاني المفردات

١- أحفل : أهتم .

- الدوائر : المصائب ودواعي الزمن .

٢- غابرُ : زائل .

٣- معتب : مسامح .

- ناشر : عائد .

٤- بلى : زوال .

٥- فننٍ : غصن .

- ورقاء : حمامة بيضاء مطوقة الرقبة بالسواد .

التعليق النقدي

الرثاء هو غرض القصيدة التي نظمتها (الأخيلية) بعد موت (توبة) ببنائية فنية ومعالجة موضوعية هيأت لها بافتتاحية (القسم) الذي مهد لشخصية المرثي وذاتها (أقسمت أرثي) ، أي : أقسمت لا أرثي ؛ لأن حياتها أضحت صحراء قاحلة بعد فقدها حبيبها الذي لا تستطيع تعويضه . ويستمر صوت الذات الشاعرة شاخصاً باستذكاره حتى النهاية فقسم الختام وهذا يعني استمرارية الحزن المرابط للطبيعة ومظاهرها ما دامت على قيد الحياة ..

فأقسمت لا أنفك ابكيك ما دعت على فنن ورقاء او طار طائر

إنها تكشف عن قدرة شعرية متميزة منحت صاحبتها موقعاً شعرياً مهماً في القصيدة العربية كون بنائها الفني يعتمد التعامل مع آثارها النفسية في كل محور من محاورها من خلال وعي الطبيعة البناء المتجاوز للتقليد فهي تعتمد الحكمة في مضمونها مع اهتمام بفلسفة الموت ..

النثر في العصر الأُموي

١ - الكتابة

من الأمور المسلّم بها أن عصر ما قبل الإِسلام عرف ضروباً من الكتابة التي سجلت فيها المعاهدات والاحلاف وبعض العقود التجارية وعرفت بعض المواطن بانتشار هذا النوع من الكتابة كالحيرة وغسان ونجران والمدينة ومكة وغيرها من الحواضر . ومن الطبيعي أن تزدهر الكتابة في المراكز التجارية ولم يقتصر أمر ظهور الكتابة على هذه المناطق المتحضرة بل تسربت إلى البادية نفسها . ولعل كثرة تشبيه الشعراء الأطلال الدارسة بالكتابة والقلم والسطور والنقوش يؤكد هذه الحقيقة التي توحي بهذه المعرفة . وحفل القرآن الكريم بذكر كثير من أدواتها ووسائلها وهي تأكيد آخر على معرفة العرب بها واهتمامهم بأساليبها وحاجاتهم إليها .

إن وجود مثل هذه الاشارات لا يعني وجود كتابة فنية ؛ ولكن انتشار الكتابة في عصر الرسالة الاسلامية وظهور الرسائل المتبادلة بين الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله وصحبه) ورؤساء الدول وبين الخلفاء والولاة والقادة والأمراء تشير بوضوح إلى تعدد أغراض الكتابة واتساع قاعدتها وكانت تتجه إلى إيضاح الغرض وتسلك المسلك الذي يحقق الغايات المطلوبة منها ، بعيدة عن التزويق اللفظي . ومنذ أوائل العصر الأموي ظهر كُتّاب محترفون وأصبحت الحاجة قائمة لظهور ديوان الرسائل فعرفت الرسائل الفن

وتنافس الكتّاب في إظهار براعتهم ليكسبوا رضا الخلفاء ، فظهرت خصائص تدل على تطور الكتابة وترقيها مثل استعمال السجع أو الإكثار من الغريب أو اعتماد أسلوب الإطناب، وتكتمل حلقة الكتّاب في بلاط هشام بن عبد الملك بعد أن أخذت مراحلها الأولى بالنضج والتطور ، لتستوي فنّاً متميزا في نشأة الكتابة الفنية التي أغنى القرآن الكريم ألفاظها ، وأمدَّها بروح الإبداع الفني فكانت فناً عربياً خالصاً .

٢ – الخطابة

وازدهرت الخطابة في هذا العصر بعد أن تهيأ لها أسباب الازدهار ، فحركة الفتوح أثارت في نفوس المقاتلين أسباب التضحية وأذكت روح الإيمان والجهاد بعد اعتماد القادة والولاة في فتوحاتهم هذه الخطابة في بث الحماسة والحمية ودفع الجنود إلى القتال في سبيل الله والاستشهاد من أجل نشر الرسالة الإسلامية ، بعد أن دأب القادة على مخاطبة جنودهم قبل المعارك أو في أثنائها ليلهبوا مشاعر الجهاد فيهم . وقد عملت هذه الخطب عملها في تحقيق كثير من الانتصارات وقد أثار التنافس الحاد بين الفئات والدفاع عن الحقوق المشروعة وانبثاق المناظرات بسبب المناقشات الطويلة بشأن فكرة القدر وإرادة الإنسان ومدى حريته موجةً من الاهتمام بالدواعي الموجبة لهذا الازدهار .

أما اتساع رقعة الدولة وانتشار الإسلام فقد أدى إلى انتعاش الخطب الدينية التي كانت تسهم في توضيح المبادىء الإسلامية وتُعرّف الناس بالواجبات التي يُلزم بها المسلمون والتشريع الذي يفرض عليهم التقيد بالحقوق الواجب اتباعها .

وتتصل بالخطبة السياسية تلك الخطب التي كان يلقيها زعماء الوفود الذين كانوا يقدمون من المدن والولايات مهنئين الخلفاء والأمراء ، أو عارضين عليهم حاجاتهم ومطاليبهم . وقد دأَب خطباء الوفود على اعتماد أسلوب خاص بالخطابة ، يكثر فيه التنميق ليستدروا به عطف الخليفة أوالوالي أوالأمير على حاجاتهم . وقد تميزت الخطب بخصائص منها :

١ - خطباء هذا العصر كانوا متأثرين بالقرآن الكريم ... ينهجون نهجه في الأسلوب والتمثيل بآياته ...

٢ - كانت الخطب جزلة الألفاظ ، حلوة التعابير لا تخلو من السجع ، معتدلة في استعمال المحسنات البيانية ...

عبد الحميد الكاتب

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامري من أهل الأنبار ، نشأ بالشام وسكن الرقة أقبل على تعلم العربية وعلوم الدين يبغي من ورائها منزلة رفيعة .

كان أول أمره معلماً للصبيان يتنقل في البلدان ولم يكد يعرف الأمويون بنبوغه حتى استكتبوه ولم يزل كاتبا لهم سنة ١٣٢ هـ إذ قتل مع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية .

وقد ذهبت آثاره بدداً ولم ينته منها إلينا إلا الشيء اليسير من رسائله الطوال والقصار وهي تمتاز بجمال المعاني وسلاسة الأسلوب .

لقد أسهمت عوامل متعددة في تفوق عبد الحميد في الكتابة والتمكن منها بهذه القوة والجودة ، فلقد كان الكاتب أديباً مولعاً بحفظ الشعر وجيد النثر وكلام البلغاء ونوابغ الناثرين ممن سبقوه ولا سيما خطب الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) والإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ورسائلهما . وكانت هذه الرسائل تمتاز بجودة المعنى وفصاحة اللفظ وجمال التأليف وبراعة الأسلوب مع تنويع الخطاب تبعاً لحال المخاطب ، مشفوعاً بإيجاز وإطناب مراعاة لمقتضى الحال ، ويرى (شوقي ضيف) أن صياغة عبد الحميد في رسائله لا تكاد تختلف عن صياغة الحسن البصري

وواصل بن عطاء وأضرابهما من الوعاظ الذين ألانوا باللغة العربية أساليبهم ومرَّنوها لأداء معانيهم وكأنما تحول أسلوبهم إلى عبد الحميد حتى أصبح لا يختلف عنهم في شيء فهو يزاوج في ألفاظه متخذاً طريقتهم في الترادف موشياً بالصور والطباقات والمقابلات الكثيرة .

وقد ظهرت آثار تلك الأقلام العربية البليغة واضحة جلية في رسائل عبد الحميد وثمارها تامة النضج يانعة الجني ثرة الماء فامتازت رسائله بتنويع الخطاب وفي إطالته للتحميدات في صدور الكتب وفي الإيجاز والإطناب والتفنن بالبدء والختام .

وأشهر رسائله أربع : الأولى في وصف الصيد ، والثانية في ذم الشطرنج ، والثالثة على لسان مروان إلى الكتّاب إضافة إلى رسائل صغيرة في أغراض مختلفة .

رسالة عبد الحميد إلى الكُتَّاب

(للدرس والحفظ : ٦ أسطر)

وليس أَحدٌ مِنْ أهلِ الصناعات أحوجَ إلى اجتماع خلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيُّها الكُتَّاب ، إذ كنتُم على ما يأتي في هذا الكتابِ من صفتكم ، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبُه الذي يثق به مُهمات أموره أن يكوُنَ حليماً في موضع الحِلْم ، فهيماً في موضع الحكم ، مقداماً في موضع الإقدام محجاماً في موضع الإحجام مُؤثراً للعَفاف ، والعَدل والإنصاف ، كتوماً للأسرار ، وفيًّاً عندَ الشدائدِ عالماً بما يأتي من النوازلِ ، يَضَع الأمورَ مواضعهَا ، والطوارقَ أماكنَهَا ، قد نَظَرَ في كُلّ فنٍّ من فنون العلم فأحْكمه ، فإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به يعرف بغريزة عقله ، وحُسْن أَدبه ، وفضل تجربته ، ما يَردُ عليه قبلَ ورودهِ ، وعاقبةُ ما يصدرُ عنه قبلَ صُدورهِ ، فيُعدّ لكلّ أمرٍ عُدّتَه وعتادَه [1] ويهّيئ لكلّ وجه هيئته وعَادته.

فتنافَسُوا يا معشر الكُتَّاب ، في صنوف الأدب ، وتفقّهوا في الديِّنِ ، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائضِ ، ثم العربيَّة ، فإنّها ثقَاف ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخطَ ، فإنّه حلية كتبكم ، وارْوُوا الأشعار ، واعرِفوا غريَبها ومعانيها ، وأيام العربِ والعجم ، وأحاديثها وسيرَها ، فإنَّ ذلك مُعين لكم على ما تسمو إليه همكُم ، ولا تضيعوا النظر في الحسابِ ، فإنّه قوامُ كُتَّابِ الخراج ، وارغبوا بأنفسكُم عن المطامع .

(١) العتاد :- العدة

التعليق النقدي

هذه صورة من نثر عبد الحميد بن يحيى كاتب الدولة الأموية في عهدها الأخير وقد أصبحت الكتابة يومئذ صناعة فنية لها أصول ورسوم من حيث تنوع موضوعاتها واختلاف أساليبها .

وبأسلوب عبد الحميد الفني وألفاظه الرشيقة يوصي الكتّاب بمجموعة وصايا بليغة تدور على ما يجب على الكتاب معرفته وممارسته من آداب الكتابة وحسن المعاشرة ولزوم التعاون والاتصاف بالأخلاق الحميدة وذلك لما للكتابة من منزلة رفيعة فالكاتب يجب أن يجد في نفسه إعداداً يليق به وبمنزلته ، وأن يترك الرديء من كل شيء مترفعاً عن الوشاية والحقد وإضمار العداوة لأنّ هذه الصفات تجلب العداوة من دون سبب وعلى الكاتب أن يكون حليماً في المواقف الذي يتطلب ضبط النفس ، متخذاً لكل حال ما يناسبها ومقدماً وجريئاً في المواقف التي تتطلب الشجاعة والتضحية ، بعيد النظر معّداً لكل أمر عدته عالماً بكتاب الله ملماً به من كل جوانبه متعمقاً العربية ، وعلى الكاتب أن يكون وفياً لصاحبه كاتماً لسره مُدَّبراً أمره ، وذلك عند الحاجة إليه .

وإذا ولي الكاتب أمراً وصُيِّرت إليه مسؤولية من المسؤوليات فهو بضميره الحي الصادق وحسه الرقيق النابع عن وجدانه عليه أن يضع الحق في موضعه ويجعل الله سبحانه وتعالى رقيباً على ما يفعل مستهدفاً رضاه ومنصرفاً إلى طاعته ، حاكماً بالعدل جامعاً رعيته على المحبة والتفاني ونكران الذات ، ثم نراه يحضُ الكُتاب على التفقه في الدين والعلم بكتاب الله وفرائضه ، والتمكن من اللغة وتحسين الخط لانه زينة الكتابة ، ويوصيهم برواية

الشعر ومعرفة الشعر ومعرفة غريبه ومعانيه ومعرفة تاريخ العرب والعجم واحداثها. ذلك المعين للكاتب في صنعته .. ويحذرهم من الانشغال بالحساب والارقام والابتعاد عن المطامع الشخصية.

وهناك وصايا أخرى في رسالة عبد الحميد لا يصعب على القارئ النبيه أن يتبينها. والملاحظ في هذه الرسالة أن عبد الحميد الكاتب قد التزم التمهيد بما يناسب المقام من الصور لكي ينتقل منه إلى غرضه بحجة قوية حتى إذا انتهى منه ختم رسالته بخاتمة تشعر بالانتهاء. كل ذلك في منطق دقيق يسلسل أفكاره في فقرات تؤدي كل فقرة منها معنى خاصاً وترتبط بماقبلها وما بعدها ارتباطاً وثيقاً من دون اضطراب ولا إسراع .

لقد مال – عبد الحميد – إلى الإطالة في رسالته التي اقتصرها على بعضها واستعمل السجع من دون إكثار منه، لأنّ أسلوبه لا يعتمد على السجع غالباً بل على ضرب من التوقيع استمده من الترادف الصوتي كما استمده من العناية بلفظه . لقد عمد – الكاتب – إلى الألفاظ الدقيقة الأداء التي لا يصعب فهمها والتي تسير مع الطبع من غير تعقيد. وقد تميز أسلوبه بالانسجام والمنطق والعبارة المهذبة . ومن التأمُّل في هذه الرسالة يستشف ما في نفس صاحبها من أخلاقٍ كريمة عالية . ويلاحظ أنه وزن عباراته وزناً برشاقة بعيدة عن التكلف .

إن الكاتب قد فصل من المعاني واستوعب بما يترك زيادة لمستزيد . بأسلوب تميز بالازدواج في الجمل والترادف فيها وذلك لزيادة تأكيد المعاني وتقويتها في نفوس المخاطبين .

إنّ اسلوب عبد الحميد في جملته يتفاوت بياناً وتجويداً في كثير من رسائله . على أنه قد سما سمواً ظاهرياً في رسالته هذه . فقد نوع في أسلوب صياغتها واستعمل الصناعات اللفظية من دون أن يثقل بها عباراته .

(للدرس فقط)

حين قدم قتيبة بن مسلم خَراسان والياً عليها من قبل الحجاج [1] سنة ٨٦ هـ فلما تهيأ لغزو أخرُون وشُومان – وهما بلاد طخارستان [2] خطبَ في الناس وحثهم على الجهاد فقال :

(إن اللّٰه أحلّكم هذا المَحل ليُعِزَّ دينهُ ، ويَذُبَّ بكم عن الحُرمات ، ويزيد بكم المال استفاضةً ، والعدوّ وقما [3] ووعد نبيَّهُ (صلى الله عليه وآله وصحبه) النصر بحديثٍ صادق ، وكتاب ناطق، فقال : (هو الذي أرسل رَسولهُ بالهُدى ودِينِ الحقِّ ليُظهرهُ على الدّينِ كُلِّه ولو كرهَ المُشركُون) ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب ، وأعظمَ الذخر عنده ، فقال: (ذلكَ بأنَّهُم لا يُصيبُهُمْ ظمأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخمصةٌ[4] في سبيل اللّٰه ولا يَطئُونَ مَوطئاً يَغيظُ الكُفّارَ ولا يَنالون من عدوٍ نَيلاً إلا كُتب لَهُمُ بِه عَملٌ صالحٌ ، إنّ اللّٰه لا يُضيعُ أجرّ المُحسنينَ ، ولا يُنفقون نَفَقَة صَغيرةً ولا كبيرة ولا يَقطعون وادياً إلا كتب لهم

---

(١) ولي قتيبة خراسان بعد يزيد بن المهلب ، وغزا بلاد ما وراء النهر ، وافتتح بخارى وسمر قند ، والخوارزم، ووصل في فتوحه الى كشغر من بلاد الصين ، وقتل سنة ٩٦ هـ .

(٢) ناحية كبيرة شرق خراسان على نهر جيجون .

(٣) وَقْماً : قَهراً وذُلاًّ . وقمه : قهره وأذله .

(٤) مخمصة : مجاعة .

لِيَجزيَهُمُ اللهُ أحسن مَا كانُوا يَعملُون) ثم أخبر عَمن قتل في سبيله أنه حَيٌّ مرزوق ، فقال : (ولا تَحسبنَّ الذين قتلوا في سبيلِ الله أمْواتاً بلْ أحياءٌ عندَ ربهم يرزقون) فتنجزوا موعدَ ربكم ووطِّنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم ، وإياكم والُهوينَى .

فاستشعروا ذلكم – وفقكم الله – من أنفسكم في حالة الرَّخاء والشدة ، والحرمان والمأساة والاحسان ، والسَّراء والضرّاء فنعمت الشَّيمةُ هذه لمن وَسَمَ بها ، من أهل هذه الصناعة الشريفة ، فإذا ولي الرجلُ منكم ، أو صُيِّرَ إليه من أمر خَلق الله وعياله أمرٌ فليراقب الله عز وجل وليؤْثر طاعته وليكن على الضعيف وفيقاً ، وللمظلوم مُنصفاً فان الخَلق عِيالُ الله وأحبَّهم إليه أرفقُهم بعياله ثم ليكن بالعدل حاكما ، وللأشراف مُكرماً ، وللفيءِ مُوفِّراً ، وللبلاد عامراً ، وللرَّعية متألفاً ، وعن إيذائهم متخلفاً وليكن في ملبسه متواضعاً حليماً، وفي سِجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقاً، واذا صَحب أحدكم فليَختبر خلائقه ، فإذا عرَف حُسنها وقبيحها ، أعانه على ما يوافقه من الحَسن ، واحتال لصَرفه عما يَهْواه من القبيح ، بألطف حيلة وأجمل وسيلة وقد علمتم أنّ سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها ، التَمس معرفة أخلاقها

فإِن كانت رَمُوحاً[١] لم يَهجها إذا ركبها وإن كانت شَبوباً[٢] اتقاها من قِبل يديها ، و إن خاف منها شَروداً توقَّاها من ناحية رأسها وإن كانت حَرُونا قَمَع برفقٍ هواها في طريقها فإِن استمرت عَطَفَها يسيراً فيسْلَس له قيادها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس وعامَلهم ، وجرّبهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعته ، ولطيف حيلته معاملته لمن يُحاورُه من الناس ويناظره ويَفهم عنه أو يخاف سَطوته ، وأولى بالرّفقِ بصاحبه ، ومداراته وتقويم أَوَده من سائس البهيمة التي لا تُحِير[٣] جواباً ، ولا تعرِف صواباً ، ولا تَفهم خطابا ، إلا بقدر ما يُصيِّرها إليه صاحُبها .

---

(١) رمحه الفرس كمنع : رفسه .

(٢) شب الفرس كضرب ونصر : رفع يديه .

(٣) لا تحير : لا تردّ .

المحتويات

الموضوع	الصفحة